مِن وَصَايا القُرآنِ الكريمْ

الوَصَايَا العَشْر

تأليف
علي محمد جمّاز

طبع على نفقة إدارة الشئون الدينيّة
بدولة قطر

مِن وَصَايا القُرآنِ الكريمْ

الوَصَايَا العَشْر

تأليف
علي محمد جمّاز

طبع على نفقة إدارة الشئون الدينيّة
بدولة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله رحمة للعالمين ، وإماماً للمتقين . فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ، ومن اتبع هداه إلى يوم الدين .

وبعـــد ،

فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم .

لقد قامت هداية الإسلام على أصلين ثابتين باقيين هما : كتاب الله وسنة رسوله . وإن الاشتغال بهذين الأصلين قراءة وفهماً ودراسة وتفقهاً وعملا واتباعاً ، من أفضل الأعمال وأجلّها وأنفعها ، وإن من حق هذا الدين الحنيف على أهله وأتباعه ، أن تتوفر على خدمته جهودهم ، بالدعوة اليه ، وحسن عرضه على الناس ، وبيان أحكامه وآدابه ، والاحتكام إلى شرعته ومنهاجه ، وإقامة حياتهم الخاصة والعامة على مبادئه الفاضلة ودستوره القويم .

وسعياً للوصول إلى هذه الغاية المنشودة ، فإن إدارة الشئون الدينية بدولة قطر تحرص كل الحرص ، على نشر العلم وإشاعة نوره وذلك بطبع الكتب النافعة في علوم الدين والثقافة الإسلامية ، وتوزيعها على أهل العلم وطلابه ، وتيسير اقتنائها لمن لا يستطيع الحصول عليها ، أو لا يجد إلى ذلك سبيلا .

وبين يدي القاريء الآن ، كتاب «الوصايا العشر» . وهو يتناول

بالتفسير والبيان ثلاث آيات من سورة الأنعام ، انتظمت مجموعة من الوصايا ، اصطلح العلماء على تسميتها بهذا الإسم ، وقد جمعت هذه الوصايا من العقائد والآداب والأخلاق والمعاملات ما لو سار على هديها الناس ، لسعدوا في دنياهم وأخراهم ، وحققوا لأنفسهم مجتمعاً فاضلا يسوده الأمن والاستقرار ، وتظلله الطمأنينة والازدهار .

ومؤلف الكتاب فضيلة الأخ الشيخ علي محمد جماز مفتش العلوم الشرعية حالياً بوزارة التربية والتعليم بدولة قطر ، وقد سبق أن قدمنا له من قبل كتاب «وصايا لقمان» وهو الآن يتقدم إلى القراء بكتابه الجديد «الوصايا العشر» الذي ينضم إلى سابقه ليكوّن معه ، باقة من الوصايا القرآنية العطرة الفواحة ، التي ترشد إلى الخير ، وتبين الحلال والحرام ، وتهدي إلى صراط مستقيم .

نسأل الله العلي القدير ، أن ينفع بهذا الكتاب ، وأن يجعله ذخراً لصاحبه يوم القيامة ، وأن يشاركنا معه في الأجر والثواب ، والله من وراء القصد ، وهو وليُّ التوفيق .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

والحمد لله رب العالمين .

الدوحة في : ١٤/١١/١٣٩٧ هـ.

عبد الله ابراهيم الأنصاري
مدير إدارة الشئون الدينية

بسم الله الرحمن الرحيم

الوصايا العشر

«قُلْ : تَعَالَوْا ، أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ : أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وبالوالدَيْنِ إحْساناً ، ولا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إمْلاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وإيَّاهُمْ ، ولَا تَقْرَبُوا الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْهَا وما بَطَنَ ، ولَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالْحَقِّ ، ذٰلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . ولَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وأَوْفُوا الْكَيْلَ والْمِيزَانَ بالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا ، وإذا قُلْتُمْ فاعْدِلُوا ولَوْ كَانَ ذا قُرْبَى وبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وأَنَّ هٰذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، ولَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[1]» .

(١) سورة الانعام : ١٥١ ـ ١٥٣

آيات ثلاث من سورة الأَنعام انتظمت مجموعة من الوصايا ، اصطلح العلماءُ على تسميتها بالوصايا العشر ، نظراً لتذييل كل آية من آياتها الثلاث بقول الله تعالى «ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ» .

وقد جمعت هذه الوصايا من العقائد والآداب ، والأَخلاق والمعاملات ما لو طبقها مجتمع من المجتمعات لضمن تحقيق السعادة والأَمن والاستقرار ، وأَخذ طريقه نحو الرقي والتقدم والازدهار .

لقد وضعت هذه الوصايا الأَساس القوي المتين لإنشاءِ الفرد المسلم السوي ذي العقيدة السليمة ، والأَخلاق الكريمة والآداب العالية ، ووضعت الأَساس المتين للأُسرة المسلمة المتحابة المترابطة التي تقوم على الوفاءِ والإِخلاص والحنان والرفق والتربية السليمة .

ووضعَت الأَساس للمجتمع المسلم المتماسك القوي الذي يأْمن الفرد فيه على دمه وعرضه وماله ، ثم ذكرت أَهم المبادئ التي تسمو بها الحياة الاجتماعية الفاضلة إن هي حافظت عليها ، والتزمت بها كإِيفاءِ

الكيل والميزان ، والعدل والوفاءِ بالعهد ، وبينت أن ذلك هو الصراط المستقيم الذي لا يضل من اتبعه ولا يهتدي من انحرف عنه ، فهو الصراط الذي بعث به محمد – صلى الله عليه وسلم – صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأَرض .

جَمَعَتْ هذه الآيات الثلاث كل ذلك في بساطة ووضوح ، فهي جديرة بتأَملها وتدبرها ، والعمل بما اشتملت عليه من عقائد وآداب ، وأَخلاق وتوجيهات .

فلا عجب أَن يلفت النبي – صلى الله عليه وسلم الأَنظار إلى مكانتها ، فيقول صلى الله عليه وسلم – فيما يرويه عبادة بن الصامت – رضي الله عنه – «أَيُّكُمْ يُبَايِعُنِي على هٰذه الآيات ؟» . ثم تلا : «قُلْ تَعَالَوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ» . حتى فرغ منها. ثم قال : «فَمَنْ وَفَّى بِهِنَّ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، وَمَنْ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئاً فَأَدْرَكَهُ اللهُ به في الدُّنْيا ، كَانَتْ عُقُوبَتَهُ وَمَنْ أَخَّرَهُ إِلى الآخِرَةِ فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ» .

وعرف الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قيمة هذه الوصايا ، فكان عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ يقول : «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إلى وَصِيَّةِ مُحَمَّد الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ ، فَلْيَقْرَأْ هٰؤُلَاءِ الآيَاتِ : قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً .... إلى آخرِ الآياتِ الثلاث» .

وأخرج ابو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل عن عليٍّ بن أَبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال : «لَمَّا أَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ ـ صلى الله عليه وسلم ـ أَنْ يَعْرِضَ نَفْسَهُ عَلَى قَبَائِلِ العَرَبِ خَرَجَ إلى مِنىً ، وأَنَا وَأَبُو بكرٍ مَعَهُ ، فَوَقَفَ رَسُولُ اللهِ ـ صلى اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ ـ عَلَى منازلِ القَوْمِ وَمَضَارِبِهِمْ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ ، وَرَدُّوا السَّلامَ ، وكانَ في القومِ مفروقُ بن عمرو ، وهانئُ بن قبيصة ، والمثَنَّى بنُ حارِثَةَ ، والنعمان بنُ شَرِيكٍ ، وكانَ مَفْرُوقُ أَغلب القَوْمِ لِسَاناً وأَوْضَحَهُمْ بَيَاناً ، فالْتَفَتَ إلى رَسُولِ اللهِ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وقال له : إلامَ تَدْعُو ياأَخَا قُرَيْش ؟ . فَقَالَ النَبِيُّ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : «أَدْعُوكُمْ إلىَ شَهَادَةِ

أَنْ لا إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنِي رَسُولُ اللهِ وَأَنْ تُؤْوونِي وَتَنْصُرُونِي وَتَمْنَعُونِي حَتّى أُؤَدِي حَقَّ اللهِ الذي أَمَرَنِي بِهِ ، فَإِنَّ قُرَيْشاً قَدْ تَظَاهَرَتْ على أَمرِ اللهِ ، وَكَذَّبَتْ رَسُولَهُ ، واستَغْنَتْ بالباطِلِ عَنِ الحَقِّ ، واللهُ هُوَ الغَنِي الحَمِيد» . فقالَ لهُ مَفْروقٌ : وإِلامَ تَدْعُو أَيْضاً ياأَخا قُرَيْش ؟ . فَتَلا رَسُولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ «قُلْ تعالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .... الآيات الثلاث» . فقال له مفروق : وإِلامَ تَدْعُو أَيضاً يا أَخا قُرَيْش ؟ فَوَاللهِ ما هذا مِن كَلامِ أَهْلِ الأَرْضِ ولَوْ كانَ مِنْ كَلامِهِمْ لَعَرَفْنَاهُ ، فَتَلا رَسُولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ «إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعَدْلِ والإِحْسَانِ ..... الآيه » .

فقالَ له مفروق : دعوتَ ـ واللهِ ـ يا قُرَشِيُّ إلى مكَارِمِ الأَخْلاقِ ، ومَحَاسِنِ الأَعْمَالِ ، وَقَدْ أَفِكَ قَوْمٌ كَذَّبُوكَ وَظَاهَرُوا عليك» .

وقالَ هانِئُ بنُ قبيصةَ : قَدْ سمعتُ مقالَتَكَ ، واستَحْسَنْتُ قَوْلَكَ يا أَخا قُرَيْشٍ ، ويُعْجِبُنِي ما تكلَّمْت

بِهِ ، فَبَشَّرَهُمُ الرَّسُولُ ـ إِنْ هُمْ آمَنُوا ـ بِأَرْضِ فارِسَ وأَنْهارِ كِسْرَى ، فَقَالَ لَهُ النُّعْمانُ : اللَّهُمَّ وإِنَّ ذٰلِكَ لكَ يا أَخا قُرَيْش ، فَتَلا رسولُ الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وداعياً إِلى اللهِ بِإِذْنِهِ وسِراجاً مُنِيراً» . ثم نهض رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم» .

ويهم القوم بالدخول في الإسلام ولكن شيخهم هانِئَ بن قبيصة يأْمرهم بالتريث والإنتظار ويذكرهم فارسهم المثنى بن حارثة ، بما بينهم وبين كسرى من عهود ومواثيق وأَنها قد لا تتفق مع إيمانهم بالدين الجديد وربما جرتهم إلى إشعال نيران حرب بينهم وبين الفرس ولا يضمنون فيها النصر ولكن وعد الرسول ـ ﷺ ـ يتحقق ولا يلبثون إلا قليلا حتى يمنحهم الله أَرضهم ويمكن لهم في بلادهم ويكون المثنى بن حارثة هو قائد جند المسلمين في فتح بلاد فارس في عهد أَبي بكر رضي الله عنه .

الوصـــية الأولى :

النهي عن الإشراك بالله

والإشراك بالله هو اتخاذ غير الله مع الله فيما هو من خصائص الألوهية . وهو أكبر المحرمات ، وأشدها إفساداً للعقل والفطرة ، وأول السبع الموبقات التي أمر النبي – صلى الله عليه وسلم – باجتنابها .

وأي انحراف بالفطرة أعظم من إنكار الربوبية والألوهية ؟ .

إن الإنسان بفطرته لا يعرف له رباً غير الله ، ولا رازقاً غير الله . من أجل ذلك اتخذ القرآن إيمان القوم بالربوبية سبيلا إلى دعوتهم لتوحيد الله وعبادته وإلزامهم بألوهيته . «يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ والَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»(١).

وفي سورة الأنعام بعد أن ذكر لهم دلائل ربوبيته دعاهم إلى عبادة الله وحده ، فقال : «ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلٰهَ إلا هُوَ خالِقُ كُلِّ شيءٍ فاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ وَكِيلٌ»(٢).

(١) البقرة : ٢١
(٢) الانعام : ١٠٢

وقد نهى الإسلام عن الشرك في أي صورة من صوره ، وعن اتخاذ الأَنداد والشفعاء والشركاء ، واعتبر ذلك انتكاساً للفطرة ، وانحطاطاً بالإنسانية إلى أحط الدركات . قال — سبحانه — «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الريحُ في مَكَانٍ سَحِيقٍ»(١) .

ومن الشرك بالله الاحتكام إلى شرع غير شرع الله واستبدال قانون البشر بقانون الله ، وتحليل ما حرَّم الله ، وتحريم ما أَحل الله ، فإن التشريع حق الله ، والتحليل والتحريم من خصائص الأُلوهية .

وقد روى الترمذي أَن عدي بن حاتم — رضي الله عنه — وكان قد تنصر في الجاهلية ، دخل على النبي — صلى الله عليه وسلم — وهو يقرأُ قوله تعالى : «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ ، والمسيحَ بْنَ مَرْيَمَ ، وَما أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا إلٰهاً وَاحِداً لاَ إِلٰهَ إلاَّ هُو» . فقال : يارسول الله ما كنا نعبدهم . فقال

---

(١) الحج : ٣١

صلى الله عليه وسلم : أَلَمْ يَكُونُوا يُحَرِّمُونَ الحَلالَ ، وَيُحَلِّلونَ الحَرَامَ فَتَتَّبِعُوهُمْ . قال : بلى . قال : فَتِلْكَ عبادتُكُمْ إِيَّاهُم.

وهكذا طهَّر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المجتمع من رجس الشرك والوثنيَّة ، وطهرت نفوس القوم من الاعتماد على غير الله ، أو الاحتكام إلى سواه ، وصدق الله العظيم «أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكماً ، وَهُوَ الَّذي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفصَّلاً»(١). «قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً فاطِرِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ وَهُو يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ»(٢). «قُلْ : أَفغيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّها الجاهِلُون»(٣).

أَجل . إن المجتمع الذي يتنكر لخالقه ، ويجحد نعمته ـ مجتمع قد حكم على نفسه بالتيه والضياع ، والدمار والخسران ؛ لأَنه بَعُدَ عن مصدر الهداية ، ومصدر العزة والقوة ، وقطع صلته بالعروة الوثقى التي لا تنفصم .

(١) الانعام : ١١٤
(٢) الانعام : ١٤
(٣) الزمر : ٦٤

أما المجتمع الذي يسلم وجهه إلى الله ويتخذ الإيمان بالله شعاراً له ، وموجهاً لسلوكه ، فهو المجتمع الذي عرف طريقه السليم ، واستمسك بالعروة الوثقى وعمل للدار الآخرة الباقية . وصدق الله العظيم :«ومَنْ يُؤمِنْ باللهِ ويَعْمَلْ صالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ ويُدْخِلْهُ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ، ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»(١).

(١) سورة التغابن : ٩

الوصية الثـــانية :

الإحسان إلى الوالدين

قال تعالى : «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً» .

وقد جاءت هذه الوصية بالأمر بالإحسان إلى الوالدين ، ولم ترد بالنهي عن الإساءة إليهما سموًّا بالإنسان أن يكون مظنة الإساءة لوالديه ، بل إن الوضع الطبيعي الذي تدعو إليه الفطرة السليمة ، ويوجبه العقل الراشد أن يحسن الإنسان إلى والديه .

وقد جاء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في آيات كثيرة من كتاب الله .

ففي سورة البقرة : «وَإِذْ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْساناً»(١).

وفي سورة النساء : «واعْبُدُوا اللهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وبِالْوَالِدَيْنِ إِحْساناً»(٢).

(١) الآيـــة : ٨٣
(٢) الآيـــة : ٣٦

وفي سورة الإسراء : «وقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ، وبالْوَالِدَيْنِ إِحْساناً»(١).

وفي سورة العنكبوت : «ووَصَّيْنا الإِنْسانَ بوالِدَيْهِ حُسْناً»(٢).

وفي سورة الأَحقاف : «ووَصَّيْنا الإِنْسانبِوالِدَيْهِ إِحْساناً»(٣).

وكل ذلك تأْكيد لحق الوالدين وحث للأَبناءِ على أَداءِ هذا الحق وعدم التفريط فيه .

وقد جعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ حق الوالدين تالياً لحقه في وجوب الأَداءِ ، وعرض في آية الإسراءِ أَشد حالات الأَبوين حاجة لحنان الأَبناءِ وعطفهم وبِرِّهم ، فقال ـ سبحانه ـ : «إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا ، فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ ، ولا تَنْهَرْهُما وقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً واخْفِضْ لَهُما جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وقُلْ : رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّياني صَغِيراً»

(١) الآيــة : ٢٣
(٢) الآيــة : ٨
(٣) الآيــة : ١٥

أَجل ، إن كِبر السن تحتاج إلى رعاية أشد ، وإلى حنان أكبر وإلى برٍّ أعظم . فحين يشعر الوالدان أنهما يودعان الحياة ، وأن شمسهما تأْذن بالمغيب ، يكون إحساسهما مرهفاً إلى حد كبير ، فتؤثر فيهما الكلمة العابرة ، والنظرة المتضجرة ، والتهاون البسيط في حقهما .

من هنا كانت العناية بمشاعرهما في هذه المرحلة من أوجب الواجبات ، لذلك نهى الله ـ سبحانه ـ عن توجيه أي كلمة تخدش إحساسهما ، أو تسيئ إليهما ، وأمر بمعاملتهما بألطف أسلوب ، وأرق عبارة «فَلاَ تَقُلْ لَهُما أُفٍّ ، ولا تَنْهَرْهُما ، وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً .. .. الخ» .

وقد عنيت السنة النبوية أشد العناية بتأْكيد حق الوالدين ، والأَمر بالإحسان اليهما ، وطاعتهما وبرهما.

في الصحيحين عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ ؟ . قالَ : الصَّلاةُ عَلى وَقْتِها . قال :

قُلْتُ : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قال : بِرُّ الوَالدَيْنِ . قـال : قلت : ثُمَّ أَيٌّ ؟ قال : الجِهَادُ في سَبِيلِ الله .

ولا شك أَن فضل الوالدين على الأَبناءِ لا ينكر ، ومن الوفاءِ أَن ترد الجميل لمن قدم لك الجميل ، وأَن تصنع المعروف لمن صنع لك المعروف .

فكيف إِذا كان صاحب الجميل وصانع المعروف هو أَقرب الناس اليك ، وأَحناهم عليك ، وأَرأَفهم بك ، ومن اختصرت آماله في الحياة كلها حتى أَصبحت أَنت .

فإِذا سعى فإِنما يسعى من أَجلك .

وإِذا بحث عن السعادة فليقدمها إِليك .

وإِذا سعدت سعد لسعادتك .

وإِذا شقيت شقي لشقائك .

وإِذا مرضت مرض من أَجلك .

إِنه يتمنى أَن يراك ترفل في حلل السعادة ، وترتقي أَعلى الدرجات ، وإِن حرم هو منها .

فهم تكافئ هذا الإنسان الذي يضحي بكل شئ في الحياة ليوفر لك حياة هانئة سعيدة ، ترفرف عليها ألوية الأمن والسلام والاستقرار .

هذا الجندي المجهول الذي يندفع بغريزته وفطرته للحفاظ عليك وحمايتك حتى يشتد عودك ، ويقوى ساعدك ، وتصبح قادراً على مواجهة أعباء الحياة .

ومهما قدَّمت ـ أيها الإبن ـ لوالديك ، فلن تستطيع مكافأتهما ، أو الوفاء بحقهما ، وحسبك أن تكون لهما كما كانا لك ، وأن تكسب رضاهما عنك ببرهما ، والعطف والحنان عليهما ، والوفاء لهما .

ولتعلم أن رضاهما دليل على رضا الله عنك ، وأن سخطهما أمارة سخط الله عليك ، كما جاء عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم [1] .

وليس معنى ذلك أن يتخذ الآباءُ من هذه الوصايا سبيلا للتنكيل بأبنائهم والجور عليهم ، وإلغاء شخصيتهم وتفكيرهم ، وقتل مواهبهم واستعداداتهم

(١) رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه ، والحاكم، وقال : صحيح على شرط مسلم .

والوقوف أمامهم في كل ما يريدون من خير ، إشباعاً لغريزة حب السيطرة والتسلط ، فإنهم بذلك يبيحون لأبنائهم أن يتمردوا عليهم ، ويهملوا حقوقهم .

وقد وصى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأبناءَ أن يبَروا آباءَهم ، حتى يجدوا من أبنائهم في المستقبل البر والعطف والحنان ، فقد جرت سنة الله ـ عز وجل ـ أن يكون الجزاءُ من جنس العمل ، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم ـ إلى ذلك في قوله : «بَرُّوا آباءَكُمْ تَبَرَّكُمْ أَبْناؤكُمْ»(١).

«وإذا كان الله قد ظهرت وصيته بالوالدين كثيراً دون الوصية بالأبناءِ ، فليس ذلك إهمالا للأبناءِ ، ولا إباحة للآباءِ أن يفعلوا ما يعن لهم مع الأبناءِ ، بل لأن طبيعة الأبوة تقضي على الآباءِ بالسير بالأبناءِ فيما يصلحهم وينشئهم على العزة والكرامة ، وتكوين الشخصية ، وحرية الرأي فيما يرونه خيراً لأنفسهم وفي حياتهم الخاصة .

(١) رواه الطبراني باسناد حسن .

وبهذا تبنى الأُسرة كما يريد الله على تبادل الحب والإحسان ، وتبادل الحقوق والواجبات (١) ».

وقد أَكد القرآن والسنة الوصية بالأُم خاصة لضعف جانبها ، ولأَنها مظنة أَن يطمع الابن فيها أَكثر من أَبيه لشدة حنانها وقوة عاطفتها ، ولأَنها عانت في حمله وإرضاعه ورعايته عناءً شديداً ، فلا ترضى أَن تنغّصه أَو تكدره ، وتؤثر أَن تتحمل هي التنغيص والتكدير على أَلا يلحقه أَذى أَو مكروه ، ولذلك قال الله ـ تعالى ـ : «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ» أَي ضعفاً على ضعف ، وقال : «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً» .

قال ابن كثير : «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً» أَي قاست بسببه في حال حمله مشقة وتعباً من وحم وغثيان ، وثقل وكرب إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة . «وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً» . أَي بمشقة أَيضاً من الطلق وشدته .

---

(١) تفسير القرآن الكريم : للشيخ محمود شلتوت ص ٤٠٨

وقد رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلا يطوف بالكعبة ، وهو يحمل أمه على عاتقه ، فقال : يا رسول الله ، هل أَديتُ حقَّها ؟ . فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «لا وَلا بِزَفْرَةٍ وَاحِدَةٍ» . أَي مهما قدمت لها فلا تستطيع أَن تكافئها بزفرة من الزفرات ، ولا بآهة من الآهات التي كانت تطلقها وهي تلدك .

وعن طلحة بن معاوية السلمي ـ رضي الله عنه ـ قال : أَتيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت : يا رسول الله ، إني أُريد الجهاد في سبيل الله . قال : أَأُمُّكَ حَيَّة ؟ . قلتُ : نعم . قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إلْزَمْ رِجْلَها ، فَثَمَّ الجَنَّة»[1].

وفي الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان أَن رجلاً سأَل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مَنْ أَحَقُّ الناسِ بحُسْنِ صَحَابَتي ؟ . قال : أُمُّكَ . قال : ثُمَّ

(١) رواه الطبراني .

مَنْ ؟ قال : أُمُّكَ . قال : ثُمَّ مَنْ ؟ قال أُمُّكَ . قال : ثُمَّ مَنْ ؟ قال : أَبُوكَ.

وما ذلك إلا حث للأبناءِ على القيام بحق الأُم والتأدب معها والاعتراف بفضلها .

الوصيـــة الثالثـــة :

النهي عن قتل الاولاد ذكوراً وإناثا

وقد كانت عادة قبيحة ترتكبها بعض القبائل العربية : يتخلصون من أولادهم الصغار من شدة الفقر المحدق بهم ، أو خوفاً من فقر يتوقعونه لو كثر أولادهم .

فنهى الله ـ سبحانه ـ عن ذلك الخلق الذميم الذي يتنافى مع الفطرة البشرية السليمة ، مبيناً أنه هو الذي يرزقهم جميعاً : الآباءَ والأبناءَ على السواء ، وأنه هو المتكفل بهم ، قال تعالى :

«وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ (أي من فقر حاصل) نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وإِيّاهُمْ» .

وفي سورة الإسراءِ : «ولا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ (أي خوفاً من فقر تتوقعون أن ينزل بكم) نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وإِيّاكُمْ ،إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خطْئاً كَبِيراً[1]»

(١) الاسراء : ٣١

وكانت القسوة تصل ببعضهم أحياناً إلى قتل بناتهم ودفنهن في التراب أحياءَ دون شفقة أو رحمة ، وكان الهم والغم ينزلان بالواحد منهم حين يرزق ببنت ، فيرى فيها عاراً وشناراً يجب التخلص منه ، «وإذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ، أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ[1]» .

وأي ذنب ارتكبته هذه المسكينة البريئة حتى يكون جزاؤها أن تدفن حية في التراب . «وإذا الْمَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ[2] ؟» .

نهى الله ـ سبحانه ـ عن قتل الأولاد والبنات على السواء ، فإن ذلك انحراف بل انتكاس للفطرة السليمة ، وتدمير لعاطفة الأبوة الرحيمة التي تعمل على استمرار الحياة وعمارة الكون .

لذلك نص القرآن الكريم على الذين يرتكبون تلك الحماقة ، ويرفضون رزق الله . فقال الله سبحانه

---

(١) النمل : ٥٨ ـ ٥٩
(٢) التكوير : ٨ ـ ٩

«قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِراءً عَلَى اللهِ ، قَدْ ضَلُّوا وَما كَانُوا مُهْتَدِينَ[1]».

وفي الحديث الصحيح : سُئِلَ النبي – صلى الله عليه وسلم – أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ ؟ . قال : «أَنْ تَجْعَلَ للهِ نداً وَهُوَ خَلَقَكَ» . قِيلَ : ثُمَّ أَيُّ ؟ . قال : «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ .. ..» .

إن الله عز وجل – لم يخلق الناس عبثاً ، ولم يتركهم سدى ، وإنما خلقهم لتحقيق خلافة الله في الأَرض ، وعبادته فيها ، وتبليغ رسالاته ، ونشر الخير والحق ، وسخَّر لهم جميع ما في هذا الكون ؛ لتيسير أَسباب الحياة ، وعمارة الكون . «وَسَخَّرَ لَكُمْ ما في السَّمٰوَاتِ وما في الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ[2]».«أَلَم تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما في السَّمٰوَاتِ وما في الأَرْضِ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وباطِنَهَ[3]» .

(١) الانعام : ١٤٠
(٢) الجاثيه : ١٣
(٣) لقمان : ٣٠

لقد ضمن الله ـ عز وجل ـ أَرزاق عباده ، وغمرهم بنعم لا تعدُّ ولا تحصى «وإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها[1]». وَكَأَيِّنْ مِنْ دابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَها ، اللهُ يَرْزُقُها وإِيَّاكُمْ ، وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيم[2]». «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُها[3]» .

فأَيَّة حماقة تلك التي تسوق بعض الآباءِ للتخلص من فلذات أَكبادهم بحجة الفقر ، أَو خوفاً من الفقر أَو خوفاً من العار ؟!.

لقد قضى الإِسلام بهذه التوجيهات الكريمة على تلك العادة الذميمة حتى أَصبحت مستهجنة عند من كان يقترفها بعد أَن أَضاءَ الله قلوبهم بنور الإِيمان .

والآية الكريمة تشمل النهي عن قتل الأَجنة في بطون أَمهاتها ، وهو إِجهاض المرأَة الحامل ، وهو من الأَمراض الخبيثة التي قذفتنا بها الحضارة الغربية المسمومة .

وقد اتفقت كلمة الفقهاءِ على أَن إِسقاط الحمل بعد نفخ الروح فيه حرام ، لا يحل لمسلم أَن يفعله ؛

(١) النحل : ١٨ (٢) العنكبوت : ٦٠
(٣) هـود : ٦

لأنه جناية على حي ، ولذلك وجبت فيه العقوبة ، أما إسقاطه قبل نفخ الروح فيه ، فزعم فريق أنه جائز توهماً منه أنه لا حياة فيه ، فلا جناية بإسقاطه فلا حرمة ، والتحقيق أنه حرام ؛ لأن فيه حياة محترمة ، هي حياة القبول والاستعداد .

وقال فيها الإمام الغزالي : «إنه جناية على موجود حاصل ، وإن أول مراتب الوجود أن تقع المادة في المحل ، وتختلط بالبويضة ، وتستعد لقبول الحياة ، وإفساد ذلك جناية ، وتعظم الجناية كلما انتقلت المادة من طور إلى طور ، حتى تصل إلى منتهاها بعد الإنفصال حيًّا » .

وقال بعض فقهاء الحنفية : «إن الماء بعد ما يقع في الرحم مآله الحياة ، فيكون له حكم الحياة[1] » .

أما إذا ترتب على استمرار الحمل ضرر فادح ، كتعرض الأم للوفاة أو نحو ذلك ، فقد أجاز العلماء الإجهاض حينئذ للضرورة ، عملا بالقاعدة الشرعية

(١) تفسير القرآن الكريم : للشيخ محمود شلتوت ص ٤١٣

«إيثار أهون الضررين» ، ولأن الأم هي الأصل ، ولها استقلال حياة بخلاف الجنين الذي لم يستقل بحياته بعد .

هذا هو حكم الإسلام وأدب الإسلام وما أحوجنا إلى أن نستوحي إسلامنا في كل أمر ونحتكم اليه في كل شيء فهو الهداية التي هدى الله بها عباده إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

★★★

النهي عن قربان الفواحش

قال الله تعالى : «ولاَ تَقْرَبُوا الفَواحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ [1]» أي سراً وعلانية .

وفي آية أخرى : «قُلْ : إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ [2]» .

والفاحشة : كل ما عظم قبحه من الأَفعال والأَقوال واستنكرته الفطر السليمة ، والعقول المستقيمة ، كالزنا واللواط وشرب الخمر وقذف المحصنات ونكاح الأُمهات والأَخوات ونحو ذلك .

وكثيراً ما تطلق «الفاحشة» : على جريمة الزنا نظراً لشدة قبحه واستهجان التقوي له ، وإن كانت تطلق أَحياناً على غيره من الجرائم ، كما أَشارت الآية الكريمة التي جاءت بالكلمة جمعاً . وقوله تعالى : «وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِساءِ إِلاّ ما قَدْ سَلَفَ . إِنَهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً [3]» .

(١) الانعام : ١٥١ (٢) الاعراف : ٣٣
(٣) النساء : ٢٢

وقد كان الزنا منتشراً في المجتمع الجاهلي ، وكان الوجهاءُ لا يرتكبونه إلا سراً ونادراً ، ويستقبحونه علانية ، أما سفلة القوم فكانوا لا يتورعون عن ارتكابه علانية ، فنزل القرآن يحرمه سراً وعلانية.

والزنا يقتل في الفرد وفي الأُمة معاني الشرف والرجولة والصلابة والاستعلاءِ ، ويدمر فيها العفة والغيرة والحياءَ .

كما أَنه يجعل الإِنسان الذي فضّله الله وكرّمه على سائر خلقه أَشبه بحيوان في غابة ، لا يعرف للشرف قيمة ، ولا للعرض مكانة ، ولا للأَنساب كرامة ، وقد جاءَ الإِسلام وأَول أَهدافه إِقامة المجتمع الإِسلامي النظيف العفيف الذي يسمو على غرائزه وشهواته ، ويتحلى بالفضيلة والعفة والشرف . من أَجل ذلك حرم الزنا ، وكلَّ ما يقرب إِليه من قول أَو فعل حتى لا يدع باب الشر مفتوحاً ، فيقي بذلك الإِنسان من التردي في الفاحشة . فحرّم الخلوة بالأَجنبية حتى لا يترك للشيطان ثغرة ينفذ منها ، فما اجتمع رجل بامرأَة إِلا كان الشيطان ثالثهما ،

وحَرّم عليها أَن تتزين أَو تتعطر أَمام الرجال الأَجانب حتى لا تغري بها مرضى القلوب .

كما أَمر الفريقين بغض البصر ، والاستئذان على البيوت قبل دخولها ، ونهي أَن تسافر المرأَة إلا مع زوج أَو محرم يحميها ، وأَمر بتيسير الزواج ، ونهى عن التشدد في مطالبة الزوج بما يثقل كاهله من المهر والنفقات ، وحث على تزويج صاحب الدين والخُلق ـ وإن كان فقيراً ـ وأَلا تكون النظرة المادية الخالصة هي المقياس في اختيار الزوج أَو الزوجة . قال تعالى : «وَأَنْكِحُوا الأَيامَى مِنْكُم والصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمائِكُمْ ، إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ [1] » .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «إِذا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ . إِلاّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ [2] » .

وعن عائشة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال

---

(١) النـــور : ٣٢

(٢) رواه الترمذي .

«إِنَّ أَعْظَمَ النِّكَاحِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُ مُؤْنَةً [1]» .

كل هذه الأَساليب الوقائية ، الهدف منها إعفاف الرجل والمرأَة على السواءِ ، وتطهير المجتمع من كل ما يثير الفتنة ويحرك الشهوة .

وذلك هو منهج الإسلام في تربية النفس وتهذيبها أَلاّ تتعرض لما يفسد فطرتها ، ويدنس صفحتها ، وأَن يحميها من الدخول في صراع مع نوازع الشر ، وقد تنهزم في المعركة . فالوقاية خير من العلاج .

وفي الحديث الصحيح : «فَمَنِ اتّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ ، كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، أَلا وإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ [2]» .

وفي حديث ابن مسعود مرفوعاً : «لا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنَ

---

(١) رواه البيهقي فى شعب الايمان .
(٢) متفق عليه .

الله ، مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ حَرَّمَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْهَا وما بَطَنَ [1] » .

إن المجتمعات الجاهلية البعيدة عن روح الإسلام وعن أهدافه هي التي تشيع فيها الفاحشة ، وينتشر فيها الفساد ، ويضيع فيها الشرف ، وذلك لفراغ القلوب من خشية الله ، وبُعْدِها عن الإيمان الحقيقي الذي يزكي النفس ، ويطهر القلب ، ويسمو بالروح .

وهيهات أن تسترد أمتنا كرامتها ، وأن تعود إلى عزتها وقوتها ، وأن تنتصر على أعدائها ، ما لم تُطَهِّرْ أنفسها ومجتمعاتها من الفحشاء والمنكر والبغي ، وما لم تَسُدِ العفة والطهارة والغيرة على الشرف والعرض حياتها ، في الافراد ، والأُسَر ، والجماعات على السّواء .

---

(١) ينظر « في ظلال القرآن » في هذه النقطة .

★★★

الوصيـــة الخـــامسة :

النهـي عن قتل النفس إلا بالحق

قال الله ـ تعالى ـ : «ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللهُ إلاّ بِالْحَقِّ» .

ذلك أَن الحياة حق لكل إنسان ، وقد اتفقت الشرائع كلها على صيانة هذا الحق وحمايته من أي عدوان ، فليس لإنسان أن ينتزع حياة إنسان آخر ، لأَن الذي منح الحياة للإنسان هو خالق الإنسان ، وهو الذي يملك وحده هذا الحق .

ومن ثم عني القرآن الكريم والسنة النبوية ببيان حرمة النفس الإنسانية ، وشدَّدا النكير على من يقتل مؤمناً بغير حق ؛ لأَن في ذلك تيتيما لأَولاده ، وترميلا لنسائه ، وهدماً لبيته ، وتحدياً لشعور الجماعة الإنسانية التي فطرت على احترام حق الحياة للإنسان ، وبغياً وعدواناً على نفس بشرية حرَّم الله قتلها إلا بالحق .

يقول الله ـ تعالى ـ : «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً

فَجَزاؤهُ جهنَّمُ خالداً فيها وغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ ولعَنَهُ وأَعَدَّ لَهُ عذاباً عظيماً[1]» .

وفي حجة الوداع خطب النبي - صلى الله عليه وسلم - جموع المسلمين الوافدة من شتى أقطار الأرض مقرراً حق الإنسان في الحياة ، فكان مما قال : أَيُّهَا الناسُ ، إنَّ دماءَكُمْ وأموالَكُمْ وأَعْراضَكُمْ حَرَامٌ عَليْكُمْ ، كَحُرمَةِ يَوْمِكُمْ هٰذا ، في شَهْرِكُمْ هٰذا ، في بَلَدِكُمْ هٰذِهِ . أَلا هلْ بَلَّغْتُ . اللَّهُمَّ فاشْهدْ» .

والمسلم والذمي والمعاهد في ذلك سواءٌ ، يعيشون في ظل الإسلام ، وتحت لوائه ، آمنين على أنفسهم وعلى أموالهم وأعراضهم .

يقول النبي صلى الله عليه وسلم - : «مَنْ قَتَلَ مُعاهِداً لَمْ يرَحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ ، وإنَّ رِيحَها لَيُوجَدُ مِنْ مَسيرَةِ أَرْبَعِينَ يَوْماً[2]».

وقال - صلى الله عليه وسلم - : «مَنْ قَتَلَ مُعاهداً لَهُ ذِمَّةُ اللهِ ورسولِهِ ، فَقَدْ أَخْفَرَ بِذِمَّةِ اللهِ ، فلا يَرَحْ

(١) النســاء : ٩٣
(٢) رواه البخاري من حديث ابن عمر .

رَائِحَةَ الجَنَّةِ ، وَإِنَّ رِيحَها لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِينَ خَرِيفاً[1]» .

إن النفس الإنسانية لها من الحرمة والقداسة في نظر الإسلام ما يجعل مجرد ترويعها ـ بله قتلها ـ جريمة كبرى فمجرد التهديد لتخويفه وترويعه وحرمانه الأمن والاستقرار وهدوء البال ، والتعرض له بما قد يؤذيه ينهى عنه الإسلام ويحذر منه .

يقول النبي ـ ﷺ ـ: «منْ أَشارَ إلى أَخيه بحديدة فإنّ الملائكةَ تلعنُه حتى وإنْ كانَ أَخاهُ لأَبيهِ وأُمِّه[2]» وحديث : «لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُروِّعَ مُسْلِماً» .

وحديث : «لا يُشِرْ أَحَدُكُمْ إلى أَخيه بالسِّلاح فإنه لا يدري أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشيطان يَنْزَعُ في يده فَيَقَعُ في حُفْرَةٍ مِن النارِ»[3] ومعنى ينزع في يده : يرمي في يده ويحقق ضربته ورميته .

هذه هي نفس الإنسان في نظر الإسلام . وقد نظر

---

(١) رواه ابن ماجه والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .
(٢ ، ٣) أخرجهما مسلم .

النبي صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة وقال : «ما أَطْيَبَكِ وما أَطْيَبَ ريحك ! وما أَعْظَمَكِ وما أَعْظَمَ حُرْمَتَكِ ! والذي نفسُ محمَّدٍ بيده لَحُرمَةُ المؤمنِ عندَ اللهِ أَعظمُ منْ حُرْمَتِكِ ، مالِهِ ودَمِهِ (١) » .

وقوله : «إلا بالحق» أي بما يبيح الشرع قتلها به كأن تقتل نفساً فتقتل به قصاصاً ، أو تزني وهي محصنة فترجم ، أو ترتد عن دينها الحق فتقتل ، أو تعيث في الأرض فساداً فتخيف الطريق ، وترهب الناس وتقتلهم وتسلب أموالهم . ذلك أن الحرمة التي كفلها الله للنفس الإنسانية ، إنما هي بالنظر لذاتها ، وأصل خلقتها ، أما إذا صدر منها ما يوجب قتلها فقد زالت عنها الحصانة ، وسلبت عنها الحرمة ، وأهدر – حينئذ – دمها .

وقد جاءت بذلك أحاديث كثيرة ، منها قول النبي – صلى الله عليه وسلم – : «لا يَحِلُّ دَمُ امرىءٍ مُسْلِمٍ إلا بإِحْدى ثَلاثٍ : الثَّيِّبُ الزّاني ، والنَّفْسُ

(١) رواه ابن ماجه .

بالنَّفْسِ ، والتارِكُ لِدِينِهِ ، الْمُفارِقُ للجماعة [1] » .

وفي قطّاع الطريق الذين يرهبون الناس ، وينشرون الرعب والفزع ، يقول الله ـ تعالى : « إِنَّما جَزَاءُ الذين يحارِبُونَ اللهَ ورسولَهُ ، ويسْعَوْن في الأَرض فساداً ، أَنْ يُقَتَّلُوا أَو يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّع أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خلاف ، أَوْ يُنْفَوْا مِن الأَرْضِ ، ذٰلك لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدّنيا ،وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ [2] ».

والنهي في الآية الكريمة يتناول النهي عن قتل الإنسان غيرَه ، وعن قتله نفسَه ، وإزهاقه لروحه ، فذلك هو الانتحار الذي يدفع اليه اليأْس من الحياة والضعف عن تحمل أَعبائها ، والهروب من مسؤولياتها وقد قال الله ـ عز وجل ـ : «ولا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً . وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلك عُدْواناً وظُلْماً ، فَسَوْف نُصْلِيهِ نَاراً ، وكانَ ذٰلِكَ عَلى الله يسِيراً [3] » .

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم ـ : «مَنْ قَتَلَ

(١) أخرجه الترمذي عن عبد الله بن مسعود وقال : حسن صحيح .
(٢) سورة المائدة : ٣٣
(٣) النساء : ٢٩

نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبَداً ، وَمَنْ تَحَسَّى سُماً فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبَداً » .

وكل فعل يؤدي بالإنسان إلى قتل نفسه ، وإزهاق روحه فهو انتحار يستوجب غضب الله وسخطه.

وفي ختام الآية الكريمة يقول الله ـ تعالى ـ: «ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» يشير إلى الوصايا الخمس التي ذكرت في الآية الكريمة ، وهي تكاليف وأوامر ونواهٍ عبَّر الله عنها بقوله : «وصَّاكم» تحبيباً للقوم ، وترغيباً لهم في اتباع ما أمر به الله ، واجتناب ما نهى عنه ، فالوصية أن يعهد إلى الإنسان بعمل خير أو ترك شر ، مع اقتران ذلك بوعظ يرقق القلوب ، ويدفعها إلى الاستجابة عن طواعية ورغبة .

«... ... لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» هذه التكاليف ، وتدركون ما فيها من فوائد لكم في دينكم ودنياكم ، ومعاشكم ومعادكم ، فإن العاقل يدرك ذلك بأدنى تأمل .

المحافظة على مال اليتيم وتنميته وتثميره

يقول الله تعالى ـ : «ولا تَقْرَبُوا مال الْيتيم إلاَّ بالَّتي هِي أَحْسنُ حتَّى يبْلُغَ أَشُدهُ» .

فينهى الله سبحانه ـ أَولياءَ اليتامى عن التصرف في أَموالهم بالتبديد والضياع والإِهمال ، ويطالبهم بأَن يقوموا على رعاية أَموالهم بالتي هي أَحسن ، بمعني : تنميتها وتثميرها ، والإِنفاق منها على تعليم اليتيم وتربيته ورعاية مصالحه ، وكل ما ينفعه في دينه ودنياه ، وما عدا ذلك فمنهي عنه : «فأَكل ماله طمعاً فيه ، واستضعافاً له ـ محرم ومنهي عنه ، وتجميده وعدم استثماره بالزراعة أَو الصناعة أَو التجارة ـ محرم ومنهي عنه ، والإِسراف به ـ ولو عليه ـ فيما لا يكسبه خيراً ـ محرم ومنهي عنه ، وإِهماله وعدم صيانته بتمكين الناس من نهبه والاستيلاءِ عليه محرم ومنهي عنه [1]» .

(١) انظر تفسير القرآن الكريم : للشيخ محمود شلتوت ص ٤٣٠

فعلى ولي اليتيم إذن أن يحافظ على ماله ، وأن يسعى في تنميته وزيادته ، وأن يحذر التصرف فيه ، وألا يستحل لنفسه من مال اليتيم شيئاً بغير حق ، فإن كان غنياً فليستعفف ، وإن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ، فإذا ما بلغ اليتيم سن الرشد : أي أصبح ناضجا في جسمه وعقله ، وأنس الولي منه الحنكة والمعرفة فليسلم إليه ماله فهو أولى به . كما قال تعالى : «وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً ، فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُم ، وَلا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَبِداراً أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ كَانَ غَنِياً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِذا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِم أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً» .

وقد توعد الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً بالعذاب الأليم ، فقال تعالى : «إِنَّ الَّذِين يأْكُلُون أَمْوَالَ الْيتامي ظُلْماً ، إِنَّما يأْكُلُون في بُطُونِهِمْ ناراً ، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً» .

وقد عملت هذه الآية عملها في نفوس الأَولياءِ من المؤمنين ، فحينما نزلت هذه الآية . وقوله تعالى : «ولا تقْربُوا مال الْيتِيم إِلاَّ بالَّتِي هِي أَحْسنُ» انطلق من كان عنده يتيم ، فعزل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه . وتحرج الأَولياءُ من كل ما يتصل بمال اليتيم حتى كان الشيءُ يفضل من اليتيم فيحبس له حتى يأْكله ويفسد ، فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأَنزل الله : «وَيَسْأَلُونكَ عنِ الْيَتامَى ، قُلْ : إِصْلاحٌ لهُم خَيْرٌ ، وإِنْ تُخَالِطُوهُم فَإِخْوانُكُمْ» . فخلطوا طعامهم بطعامهم ، وشرابهم بشرابهم [1] .

وكما عني القرآن الكريم باليتيم من جهة ماله ، فقد عني به من جهة نفسه ، ورعاية مشاعره وعواطفه حتى لا يشعر باليتم . قال الله ـ تعالى ـ : «فأَمَّا الْيتِيمَ فلا تَقْهرْ» .

وجعل القرآن زجر اليتيم كالتكذيب بيوم الدين

(١) رواه أبو داود والحاكم ، وقال « صحيح ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي ، ورواه أحمد مختصرا ، وانظر تفسير ابن كثير حـ٢ ص ١٨٩ ط ٠ العلبي ٠

حين قال : «أَرأَيْت الَّذي يُكَذّبُ بِالدِّينِ . فَذلَكَ الذي يدُعُّ اليَتِيمَ [1]» . أَي يزجره وينهره ويزدريه .

وقد حفلت السنة النبوية بالحث على رعاية اليتيم وحسن معاملته . فعن أَبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «خَيْرُ بيْتٍ في المُسْلمينَ بيْتٌ فيه يَتيمٌ يُحسَنُ إِليْهِ ، وشرُّ بيْتٍ في الْمُسْلمين بيْتٌ فيه يتيمٌ يُساءُ إِليْه [2]» .

وعن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «أَنا وكافلُ الْيَتيم في الْجنَّة هٰكذَا» . وأَشار بالسبابة الوسطى وفرج بينهما [3].

ويذكِّر القرآن الكريم أَولياءَ اليتامى بأَن يضعوا نصب أَعينهم ، أَن اليُتْم الذي قدِّر على هؤلاءِ

---

(١) سورة الماعون : ١ ، ٢
(٢) رواه ابن ماجه .
(٣) رواه البخاري وأبو داود والترمذي .

الصغار ربما يجري على أولادهم ، فليحسنوا إليهم حتى يقيض الله لأبنائهم من يرعاهم ، ويحسن اليهم إذا ما كتب عليهم ذلك . يقول الله ـ تعالى ـ : «وَلْيَخْشَ الذين لوْ تركُوا من خلفهمْ ذُرِّيَّةً ضعافاً ، خافُوا عَلَيْهِمْ ، فلْيَتَّقُوا الله ، ولْيَقُولُوا قَوْلاً سديداً»[1].

★★★

(١) سورة النساء : ٩

إيفـــاء الكيل والميزان

يقول الله ـ عز وجل ـ : «وَأَوْفُوا الْكيْل والْمِيزانَ بِالْقِسْطِ ، لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعها» .

وفي آية الإسراء : «وأَوْفُوا الْكيْلَ إذا كِلْتُمْ ، وزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، ذٰلِك خيْرٌ وأَحْسنُ تَأْوِيلا [1]» . أي أحسن مآلا وعاقبة .

نهى الله ـ سبحانه وتعالى ـ في الوصية السابقة عن أكل أموال اليتامى بصفة خاصة ، وهنا يأمر بإيفاءِ الكيل والميزان المتضمن للنهي عن أكل أموال الناس بالباطل .

وتطفيف الكيل والميزان داءٌ قديم ، عرف به أهل الطمع والجشع في البيع والشراء .

وقد قصَّ الله علينا في كتابه الكريم من أنباءِ الأمم السابقة قصة قوم شعيب الذين انتشر فيهم هذا الداءُ ، وشاع فيهم الفساد الاقتصادي ، فأرسل الله

(١) الاسراء : ٣٥

لهم شعيباً ـ عليه السلام ـ يدعوهم للإقلاع عن هذه العادة الذميمة حتى لا يعرضوا أنفسهم لمقت الله وغضبه ودعاهم للتعامل الشريف النظيف ، فلا يأكل أحد منهم مال أخيه . قال لهم : «يا قوْم أَوْفُوا الْمكْيَالَ وَالْمِيزَان بِالْقِسطِ ، ولا تبْخَسُوا الناس أَشْيَاءَهُمْ ، ولا تَعثَوا في الأَرْضِ مُفْسِدِينَ[1]» . وفي آية : «أَوْفُوا الكَيْلَ لا تكُونُوا مِن الْمُخْسِرِين . وزِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، ولا تَبْخَسُوا النَّاس أَشْيَاءَهُمْ ، ولا تَعْثَوْا في الأَرْضِ مُفْسِدِين[2]» .

ولكن القوم لم يسمعوا له ، ولم يقلعوا عما ألفوه من الغش والتطفيف ، فانتقم الله منهم «وأَخَذَتِ الَّذِينَ ظلمُوا الصَّيْحةُ فَأَصْبحُوا في دِيَارِهِمْ جاثِمِين كَأَنْ لمْ يغْنَوْا فِيهَا[3]» .

وحقت عليهم كلمة الله الذي يمهل ولا يهمل ، كما جاءَ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «إِنَّ الله لَيُمْلِي للظَّالِم حَتَّى إِذَا أَخذهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ثم

---

(١) هود : ٨٥
(٢) الشعراء : ١٨٣
(٣) هود : ٩٤ ، ٩٥

قرأ «وَكذٰلك أَخْذُ ربِّكَ إِذَا أَخذ الْقُرى وهِي ظالِمةٌ إِنَّ أَخْذهُ أَلِيمٌ شديدٌ[1]» وكان ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ يقول : إِنَّكُمْ وُلِّيتُمْ أَمْرَيْنِ هلك بِهِما النَّاسُ قَبْلَكُمْ ، هٰذا الْمكْيالُ ، وهٰذَا الْمِيزانُ .

وقد أَعلن الله الحرب على المطففين في سورة من القرآن الكريم سماها باسمهم هي سورة المطففين التي تنذرهم بيوم عظيم يقفون فيه بين يدي الله ـ عز وجل ـ إن لم يقلعوا عن الغش والخيانة في البيع والشراء ، فقال: « وَيْلٌ لِلْمُطفِّفِينَ . الَّذِينَ إِذا اكْتالُوا على النَّاس يسْتَوْفُونَ . وإِذا كَالُوهُمْ أَوْ وزَنُوهُمْ يُخْسِرُونْ . أَلا يَظُنُّ أُولٰئك أَنَّهُمْ مَبْعُوثُون لِيوْمٍ عَظِيم؟ يَوْم يَقومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالمين[2]» .

وليس الأَمر قاصراً على المكيال والميزان فحسب ، فما هما إِلا مثالان ضربهما الله ـ سبحانه وتعالى ـ لكل معاملة يحاول فيها أَحد الطرفين أَن يأْكل مال الآخر ، ويبخسه حقه أَو يعطيه شيئاً رديئاً على أَنه جيِّد ، أَو قديماً على أَنه جديد ، فيكون الغش والبخس

(١) هود : ١٠٢ (٢) المطففين : ١ ـ ٦

في الكيف لا في الكم .

كل ذلك نهى عنه الإسلام ، ودعا إلى الترفع عن هذه الصغائر ، فليس ذلك من شأن المؤمنين ، وفي الحديث : «منْ غشَّنا فليْسَ منَّا» . وإن أي زيادة يستبيحها البائع لنفسه دون وجه حق ، خداعاً للمشتري أو استغلالا لعدم معرفته وسذاجته ، إنما هي لون من التطفيف ، وكسب حرام غير مشروع ، لا يقبله الله منه ، ولا يبارك له فيه ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً .

عن ابن مسعود رضي الله عنه ـ قال : «قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «لاَ يَكْسِبُ عَبْدٌ مَالاً حرَاماً ، فَيتَصدَّقُ منْهُ فَيُقْبَلُ منْهُ ، ولا يُنْفقُ منْهُ فَيُبَارَكُ لهُ فيه ، ولاَ يَتْرُكُهُ خلْفَ ظهْرِه إلاَّ كانَ زادَهُ إلى النَّارِ ، إنَّ اللهَ لا يَمْحُو السَّيءَ بِالسَّيِّءِ ، وَلَكنْ يَمْحُو السَّيِّئَ بِالْحَسَنِ ، إنَّ الخَبيثَ لاَ يَمْحُو الخبِيثَ[1]»

«يُروَى أَنه كان عند يونس بن عُبَيْد حُلَلٌ مختلفة الأَثمان ، ضَرْبٌ قِيَمَةُ كُلِّ حُلَّة منه أَربعمائة ،

(١) رواه صاحب مصابيح السنة .

وضربٌ كلُّ حُلَّةٍ قيمتُها مائتان ، فمرَّ إلى الصلاة وخَلَّفَ ابن أَخيه في الدُّكان ، فجاءَ أَعرابيٌ وطلب حُلَّةً بأَربعمائة ، فعرضَ عليه من حُللِ المائتين فاستحسنها ورَضِيَها واشتراها ثم مضى بها ، وهي على يديْه فاستقبله يونس فعرف حُلَّتَهُ . فقال للأَعرابي بكم اشتريت ؟ فقال الأَعرابي : بأَربعمائة . فقال يونس : لا تساوي أَكثر من مائتين ، فارجع حتى تردَّها . فقال الأَعرابي : هذه تساوي في بَلدِنا خمْسَمائة وأَنا أَرْتَضِيها . فقال له يونس : انصرف ، فإِن النُّصح في الدِّين خيرٌ من الدنيا بما فيها ، ثم ردَّه إِلى الدكان ، وردَّ عليه مائتيْ درهم ، وخاصم ابن أَخيه في ذلك ، وقال له : أَما استَحْيَيْت ؟ ! أَما اتَّقيْتَ اللهَ ؟ تربْحُ مثل الثَّمَنِ وتترُك النُّصْح للمُسْلِمين ! . فقال أَبن أَخيه : والله ما أَخذها إِلا وهو راضٍ بها . قال يونس : فهلاَّ رَضيتَ له بما ترضاه لنفسك ؟ ! .

وَرُوِي عن محمد بن المُنْكدِر أَن غلامه باع لأَعرابي في غَيْبَتِهِ سلعةً من الخَمْسِيَّات بعشْرة ، فلم

يزَلْ يطلبُ ذلك الأَعرابيَّ طُولَ النهار حتى وجده . فقال له : إن الغلام قد غَلِطَ فباعَك ما يساوي خمسة بعشْرةٍ . فقال : ياهذا ، قد رَضِيتُ . فقال : وإن رَضيتَ ، فإنّا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأَنفسنا ، ورَدَّ عليه خمسة[1] » .

أَرأَيت هذا الورع والزهد ، والأَمانة والقناعة ، والتعفف عن المال الحرام ، والإكتفاءَ بالربح الحلال مهما كان يسيراً .

إن سلفنا الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ كانت تمتلئ قلوبهم بخشية الله ، وكانوا يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأَبصار ، ليجزيهم الله احسن ما عملوا ، ويزيدهم من فضله ،فهم يحاسبون أَنفسهم قبل أَن يحاسَبوا ، ويزنون أَعمالهم قبل أَن توزن عليهم ولا يضحون بمستقبلهم عند الله من أَجل دنيا فانية أَو عرض زائل .

وقد ختم الله هذه الوصية بقوله تعالى : «لاَ نُكَلِّفُ

(١) الرسالة الخالدة : لعبد الرحمن عزام ص ٦٥ ، ٦٦

نفْساً إلاّ وُسْعَها» . إيماءً إلى أَنَّ الإيفاءَ المطلوب إنما هو بقدر الوسع والطاقة ، فإن الدقة في الكيل والميزان التي تحقق العدل المطلق ، قد لا تكون في مقدور الإنسان ووسعه ، ولذلك رخص الله سبحانه ـ فيما لا يملك الإنسان ضبطه في الزيادة والنقصان ، دفعاً للحرج ، ونفياً للعسر والمشقة . «يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ» . وهي قاعدة هامة ذات شأن في التشريع الإسلامي .

وفي تفسير المنار للشيخ رشيد رضا تعقيب جيِّد على هذه الجملة ، وبيان المقصود منها ، ننقله فيما يلي :

« لا نكلف نفساً إلا وسعها » هذه جملة مستأنفة لبيان حكم ما يعرض لأَهل الدين والورع من الأَمر بالقسط في الإيفاءِ ، فإن إقامة القسط أَمر دقيق جداً لا يتحقق في كل مكيل وموزون إلا إذا كان بموازين كميزان الذهب الذي يضبط الوزن بالحبة وما دونها . وفي التزام ذلك في بيع الحبوب والخضر والفاكهة حرج عظيم يخطر في بال الورع السؤال عن حكمه ،

فكان جوابه أَن الله ـ تعالى ـ لا يكلف نفساً إلا ما يسعها فعله ، بأَن تأْتيه بغير عسر ولا حرج ، فهو لا يكلف من يشتري أَو يبيع ما ذكر من الأَقوات ونحوها أَن يزنه ويكيله بحيث لا يزيد حبة ولا مثقالا بل يكلفه أَن يضبط الوزن والكيل له أَو عليه ، على حد سواءٍ بحسب العرف ، بحيث يكون معتقداً أَنه لم يظلم بزيـــادة ولا نقص يعتدُّ به عـــرفاً .

وقاعدة اليسر وحصر التكليف بما في وسع المكلف وما يقابله من رفع الحرج ونفي العسر من أَعظم قواعد هذا الشرع المبني على أَقوى أَساس من الحق فلا يساويه فيه قانون من قوانين الخلق ، ولو عمل المسلمون بهذه الوصية لاستقامت أُمور معاملتهم ، وعظمت الثقة والأَمانة بينهم ، وكانوا حجة عَلى غيرهم من المطففين والمفسدين ، وما فسدت أُمورهم ، وقلت ثقتهم بأَنفسهم ، وحلَّ محلها ثقتهم بالأَجانب الطامعين فيهم إلا بترك هذه الوصية وأَمثالها ، ثم تجد بعض المارقين الجاهلين منهم يهذون ويقولون : إن ديننا هو الذي أَخرنا ، وقدَّم غيرنا [1] !!) اهـ

(١) تفسير القرآن الحكيم : للشيخ محمد رشدى رضا حـ ٨ ص ١٩١

العدل في الأقوال والأفعال والأحكام

يقول الله ـ تعالى ـ : «وإذا قُلتُمْ فاعْدلُوا ولوْ كان ذا قُرْبي» .

أي عليكم أن تعدلوا في أقوالكم إذا قلتم ، وأن تقولوا الحق إذا شهدتم أو حكمتم ، ولو كان المشهود له أو عليه ، أو المحكوم له أو عليه ذا قرابة لكم ، فلا يجوز أن تحابي فيه أحداً لقرابة أو صداقة أو نحو ذلك .

ومعنى العـــدل : التسوية ، وهي تشمل التسوية بين الناس في إعطاءِ الحقوق ، وفي تكافؤ الفرص ، والمساواة أمام القانون .

فلا يميز غني على فقير ، أو قوي على ضعيف ، أو قريب على بعيد ، أو رئيس على مرؤوس ، أو ملك على سوقة ، فالكل سواءٌ أمام العدل الإسلامي .

وقد كتب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري

كتاباً في القضاء ، فكان مما كتب إليه : «آسِ بيْن النَّاسِ (أَي سوِّ بين الناس) في مجْلِسك ، وفي وَجْهِك وقضائك ، حتى لا يطْمع شريفٌ في حيْفِك ، ولا ييْأَس ضعِيفٌ مِنْ عدْلِك» . وهذا قمة العدل . أَن يسوي القاضي بين الخصوم في الإقبال والبشاشة ، والنظر إليه ، والترحيب به ، والقيام له ، فمتى خص أَحد الخصمين بشي من ذلك ، كان دليل ظلمه ، وعنوان حيفه وجوره .

يقول الإمام ابن القيم : «وفي تخصيص أَحد الخصمين بمجلس أَو إقبال أَو إكرام مفسدتان : إحداهما : طمعه في أَن تكون الحكومة له ، فيقوى قلبه وجنانه . والثانية : أَن الآخر ييأَس من عدله ، ويضعف قلبه ، وتنكسر حجته [1] » .

وفي الرجوع إلى الحق إذا تبين ، يقول عمر لأَبي موسى : «ولا يمنعنك قضاءٌ قضيت فيه اليوم ، فراجعت فيه رأْيك ، فهديت فيه لرشدك أَن تراجع

---

(١) اعلام الموقعين : ٨٥/١

فيه الحق ، فإن الحق قديم لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل » .

وفي آية أُخرى يقول الله ـ تعالى ـ : «يا أَيُّها الَّذين آمنُوا كُونُوا قوَّامين بالْقسْطِ شُهداءَ لله ، ولوْ على أَنْفُسكُمْ أَوْ الْوالدَيْنِ والأَقْربين . إنْ يَكُنْ غنيًّا أَوْ فقيراً فاللهُ أَوْلى بهما فلا تتَّبعُوا الْهوى أَنْ تعْدلُوا وإنْ تلْوُوا أَوْ تُعْرضُوا فإنَّ الله كان بما تعْملُون خبيراً[1]» .

«والقسط» : العدل . «و «القوامون بالقسط» : هم الذين يقيمون العدل بالإتيان به على أَتم الوجوه وأَكملها وأَدومها . فإن «قوَّامين» : جمع قوَّام : وهو المبالغ في القيام بالشيء . والقيام بالشيء : هو الإتيان به مستوياً تاماً ، لا نقص فيه ولا عوج ، ولذلك أَمر الله ـ تعالى ـ بإقامة الصلاة ، وإقامة الشهادة ، وإقامة الوزن بالقسط لتأْكيد العناية بهذه الأَشياء .

والقسط يكون في العمل ، كالقيام بما يجب من

(١) النساء : ١٣٥

العدل بين الزوجات والأَولاد ، ويكون في الحكم بين الناس ممن يوليه السلطان ، أَو يُحَكِّمهُ الناس فيما بينهم ، وكان ينبغي أَن يكون المسلمون بمثل هذه الهداية أَعدل الأُمم ، وأَقومهم بالقسط ، وكذلك كانوا عندما كانوا مهتدين بالقرآن ، وصدق على سلفهم قول الله ـ تعالى ـ : «وَمِمَّنْ خلَقْنا أُمَّةٌ يَهْدُون بِالْحَقِّ وبِهِ يَعْدِلُونْ[1]». ثم خلف من بعدهم خلف نبذوا هداية القرآن وراءَ ظهورهم ، حتى صارت جميع الأُمم تضرب المثل بظلم حكامهم ، وسوءِ حالهم ، وتفخر عليهم بالعدل ، بل صار الذين ليس لهم من الإِسلام إِلا اسمه ، يلتمسون من تلك الأُمم القسط ، وما يهدي إِليه من العلم[2] » .

ومن أَخطر الآفات التي تنحرف بصاحبها عن العدل ، وتميل به إِلى الجور والانحراف والظلم ، اتباع الهوى . ولذلك نهى الله عنه في آيات كثيرة منها : «فاحْكُمْ بيْن النَّاسِ بِالْحَقِّ ، وَلاَ تتَّبع الْهوى فَيَضِلَّكَ عن سبِيل اللهِ» . وقوله : «أَفَرَأَيْت من اتَّخَذَ إِلٰهه

(١) الاعراف : ١٨١
(٢) انظر تفسير المنار ٥/٤٥٥ ـ ٤٥٦ للشيخ رشيد رضا

هواه وأَضلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْم ، وختم عَلَى سمْعه وقلْبه وَجعَلَ عَلَى بصرِهِ غشاوةً ، فَمنْ يهديه مِنْ بَعْد الله[1]؟».

وقوله: «إِنْ يتَّبِعُون إلاَّ الظَّنَّ ، وما تهْوَى الأَنْفُس[2]» .

وقوله: «وَإِنَّ كَثيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْم[3]».

وفي الآية التي معنا يقول الله : « فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تعْدِلُوا[4]». أَي فلا تتبعوا الهوى وميل النفس إلى أَحد ممن كلفتم بالعدل فيهم ، أَو الشهادة لهم أَو عليهم ، كراهة أَن تعدلوا . بل آثروا العدل على الهوى ، وأَقسطوا إِن الله يحب المقسطين . وبذلك يستقيم أَمر الناس ، ويشيع بينهم الأَمن والاستقرار والطمأْنينة . أَو المعنى : لا تتبعوا الهوى لئلا تعدلوا عن الحق إلى الباطل ، فإِن الهوى مزلة الأَقدام ، ويقود صاحبه إلى الجور والانحراف وعدم الإِنصاف .

«وإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فإِنَّ الله كان بما تَعْمَلُونَ خبِيراً[5]» .

وفي «تلووا» قراءَتان متواترتان . الأُولى : وهي قراءَة الكوفيين «تلُوا» بضم اللام وإسكان الواو ، من

(١) الجاثيه : ٢٣
(٢) النجم : ٢٣
(٣) الانعام : ١١٩
(٤) الانعام : ١٣٥
(٥) النساء : ١٣٥

الولاية . والمعنى : وإن تلوا أَمر الشهادة وتؤدوها ، أَو تعرضوا عنها وتكتموها ، فإِن الله خبير بعملكم ، لا تخفى عليه نياتكم ، وما تنطوي عليه أَنفسكم . الثانية : وهي قراءَة غيرهم : «تلْوُوا» بسكون اللام وضم الواو ، من «اللَّي». والمعني : وإِن تلووا أَلسنتكم بالشهادة وتحرفوها ، أَو تعرضوا عنها فلا تؤدوها ، فإِن الله خبير بعملكم ، وسيجازيكم عليه .

وقال «خبيراً» ولم يقل «عليماً» لأَن الخبرة هي العلم بدقائق الأُمور وخفاياها ، فهي التي تتناسب وهذا المقام الذي تختلف فيه النيات ، ويكثر فيه الغش والاحتيال .

بالعدل والإِنصاف تستقيم حياة الفرد والأُسرة والمجتمع والدولة ، وتختفي الأَثرة والمحاباة من المجتمع ، ويطمئن كل ذي حق على حقه ، ويرتدع كل مبطل عن باطله ، ويسود حياة الناس الأَمن والسلام ، والطمأْنينة والاستقرار ما دامت مظلة العدل تظل الجميع .

ولقد نبه النبي – صلى الله عليه وسلم – أَصحابه ، وهو يضع الركائز الثابتة للمجتمع المسلم إلى أَن الذي أَهلك الأُمم السابقة ، أَنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ . وهذه هي التفرقة التي تجعل الناس طبقات . وهذا هو الجور الذي يملأُ القلوب بالحقد والبغضاء ، ويؤجج نيران الصراع بين الطبقات .

وفي آية أُخرى يقول الله – عز وجل – : «يـٰأَيُّها الَّذين آمنُوا كُونُوا قوَّامين لله شُهَداءَ بِالْقسْط ، ولا يجْرِمنَّكُمْ شنآنُ قوْم عَلَى أَلاَّ تعْدِلُوا . إِعدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ للتقْوَى[(1)]».أَي لا يحملنكم بغضكم لأَحد من الناس على عدم العدل وإقامة القسط ، بل يجب أَن تطرح الأَهواءُ الشخصية ، والنوازع النفسية جانباً ، وأَن تبقى بعيدة كل البعد عن التأْثير على الحكم بالعدل وأَن يكون العدل رائده ومبتغاه ، فلا يمنعه من الحكم بالعدل أَن يكون صاحب الحق عدواً له أَو صديقاً ، ولا يمنعه من الحكم بالعدل أَن يكون الجاني شريفاً أَو وضيعاً ، ولا يمنعه من الحكم بالعدل أَن يكون قريباً أَو بعيداً ، فالعدل يشمل الجميع دون تفرقة ، مهما

(1) المائده : ٨

كانت الدوافع والأَسباب .

«إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّوا الأَمانَاتِ إِلى أَهْلِها ، وإِذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ[1]».وانظر إِلى كلمة «الناس» فهي تشمل كل الناس ، ولو كانوا على غير دينه ، ولو كانوا من غير جنسه ، ولو كانوا يكرههم أَو يكرهونه ، فهو العدل المطلق الذي لا يميل ميزانه الحب والبغض ، ولا يغيِّر قواعده المودَّة والشنآن . العدل الذي لا يتأَثر بالقرابة بين الأَفراد ولا بالتباغض بين الأَقوام ، ولا بالاختلاف بين الأَجناس . العدل الذي يستظل به كل من يعيش في دولة الإِسلام وفي مجتمع الإِسلام .

لم يكن العدل أَو غيره من مبادئ الإِسلام مجرد شعارات ، أَو كلمات تتحرك بها الشفاه ، أَو نظريات جوفاءَ ترددُّها الأَلسنة ، بل كانت واقعاً عملياً ماثلا في حياة المسلمين ، سعد بها المجتمع الإِسلامي حيناً من الدهر ، ونعم بها كل من عاش في هذا المجتمع في ظل الإِسلام وتحت راية القرآن .

(١) النساء : ٥٨

بعث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبد الله بن رواحة إلى خيبر ليخرص التمر أي ليقدر ثمن النخل فيها ، ويحدد نصيب المسلمين ونصيب اليهود ، بناءً على معاهدة بينهم وبين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن لهم نصف الثمر ، وللمسلمين النصف ولكن اليهود ـ على عادتهم ـ أرادوا أن يشتروا ذمة عبد الله بن رواحة ، ويعطوه قدراً من المال لنفسه ، حتى يقدر لهم نصيباً أكبر ، فالتفت إليهم قائلا : «أَتَرْشُونَني ياأَعْداءَ اللهِ ؟ ! واللهِ لأَنْتُمْ أَبْغَضُ إليَّ مِن القِرَدة والخنازيرِ ، ولمُحمَّدٌ ـ صلى الله عليه وسلم أَحبُّ إليَّ مِنْ نَفْسي ، ولٰكِنَّ ذٰلك لا يَحْمِلُني على أَنْ أَحيف عَلَيْكُمْ أَوْ أَظْلِمَكُم ، فقدْ علَّمَنا الإِسْلامُ أَنْ نَعْدل مع الصديقِ والعَدُوِّ ، وَمَعَ الْمُؤْمِنِ والْكافِرِ ، وَإِنَّ هٰذِهِ الرِّشوة التي عَرَضْتُمْ عليَّ سُحْتٌ ، وإِنَّا لا نأْكلُها» . فلم يملك اليهود إلا أَن قالوا : بهذا قامت السموات والأَرض .

«ويحدثنا الشعبي أَن علياً ـ رضي الله عنه ـ ضاعت منه درع فوجدها عند نصراني ، فأَقبل به

إلى القاضي «شريح» يخاصمه ، وقال علي : هذه الدرع درعي ، ولم أَبع ، ولم أَهب .

فقال شريح للنصراني : ما تقول فيما يقول أَمير المؤمنين ؟ .

فقال النصراني : ما الدرع إلا درعي ، وما أَمير المؤمنين عندي بكاذب ؟ .

فالتفت شريح إلى علي وقال : يا أَمير المؤمنين ، أَلك بينة ؟ .

فابتسم عليٌّ وقال : أَصاب شريح ، ما لي بينة .

فقضى بالدرع للنصراني ، فأَخذها ومشى خطوات ثم رجع ، فقال : أَما أَنا فأَشهد أَن هذه أَحكام الأَنبياءِ : أَمير المؤمنين يُدِينُني إلى قاضيه ، فيقتضي فيقضي عليه ، أَشهد أَن لا إِلٰه إلا الله ، وأَن محمداً عبدُهُ ورسوله . الدرع ـ والله ـ دِرْعُك ، يا أَمير المؤمنين ، سقطَتْ منك ، وأَنت مُنْطَلِقٌ إلى صِفِّين .

قال : أَما إِذ أَسْلمْت فهي لَك .

وقصة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في إنصافه للقبطي الذي نال منه ابن عمرو بن العاص قصة مشهورة معروفة ، فقد كانا يتسابقان ، فسبق القبطي ابن الوالي ، فضربه هذا ، وقال له : أتسبق ابن الأكرمين ؟ . فشكاه القبطي إلى أمير المؤمنين عمر ، فأرسل الخليفة إلى عمرو بن العاص والي مصر يطلب منه أن يوافيه هو وولده في موسم الحج ، وهناك انتصف للقبطي من الولد ومن أبيه ، وقال الخليفة للقبطي : إضرب ابن الأكرمين كما ضربك فضربه حتى اكتفى واشتفي ، ثم التفت إلى عمرو وقال كلمته التاريخية : يا عمرو ، متى اسْتَعْبَدْتُمُ النَّاس وَقَدْ ولدَتْهُمْ أُمَّهاتُهُمْ أَحْراراً ؟ .

هذا هو العدل الذي قامت به السموات والأرض ، والذي كان عنواناً كريماً لحضارتنا الزاهرة ، لا تلك الحضارة المزيفة التي يأكل القوي فيها الضعيف ويسحق الغني الفقير ، ويستعلي فيها الحاكم على المحكوم ، والرئيس على المرؤوس .

أَما الحضارة الإِسلامية في عهودها الزاهرة المشرقة فقد كان العدل أَساسها ، والإِنصاف عمادها ، والمساواة عنوانها وشعارها .

ورحم الله أَبا بكر الصديق - رضي الله عنه - حين قال في أَول خطبة له بعد أَن أَصبح خليفة المسلمين : «أَيُّها النَّاسُ الضَّعيفُ فيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ الحقَّ لهُ ، والقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي حتَّى آخُذَ الحَقَّ مِنْهُ» .

وبقدر ما أَمر الله بالعدل ، وحث عليه ، ورغب فيه بقدر ما نهى عن الظلم ونفر منه ، وجعله من أَسباب انهيار المجتمعات ، وحذَّر الظَّلَمةَ والطغاة من سوءِ المصير ، وهول العاقبة يوم يعض الظالم على يديه وينظر حواليه فلا يجد مالاً ولا جاهاً ، ولا أَولياءَ ولا نصراءَ ، فيقول : «ياليْتها كَانت الْقاضِيَة ، مَا أَغْنَىَ عَنيِّ ماليَه ، هَلكَ عَني سُلطانيه [1]» .

في هذا اليوم يقول الله عن الظالمين : «مَا للظالِمين مِن حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاع [2]» «وَالظَّالِمُونَ ما لَهُمْ مِنْ

(١) الحاقه : ٢٧ - ٢٩ (٢) غافـــر : ١٨

وليٍّ وَلا نَصِيرٍ[1]» .

وفي الحديث القدسي عن أَبي ذر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن رب العزة : «ياعِبادِي ، إني حرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىَ نفْسِي ، وَجَعَلْتُهُ بينكُمْ مُحرَّماً فلا تظَّالمُوا».

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ أَن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «اتقوا الظلم ، فإِنَّ الظُّلْم ظلماتٌ يومَ القيامَةِ ، واتَّقُوا الشُّح فإِنَّ الشُّح أَهْلكَ مَنْ كانَ قَبْلكُم ، حملَهُمْ على أَنْ سَفكُوا دِماءَهُمْ ، واسْتحلُّوا مَحَارِمهُمْ» .

إن عاقبة الظلم وخيمة ، والله ـ عز وجل ـ لا يرضى بالظلم لعباده ، وقد أَعد للظالمين عذاباً أَليما ، يقول ـ سبحانه ـ : «وَمنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عذاباً كبِيراً[2]» ولا يقبل الله توبة عبد ظالم إلا إذا ردَّ المظالم إلى أَهلها وإذا كان ـ سبحانه ـ يتسامح في حقه ، فإِنه لا يتسامح في حقوق عباده حتى يأْخذوا حقوقهم

---

(١) الشورى : ٨ (٢) الفرقان : ١٩

أَو تطيب أَنفسهم ، ولا ينجي الظالم من عذاب الله إلا أَن يرتد عن ظلمه ، ويرتدع عن كبريائه ، ويخضع للحق ، ويكف عن الظلم ، ويتحلل من مظالمه في الدنيا قبل الآخرة ، وإلا فسوف يقف مع المظلوم بين يدي الله – عز وجل – يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وياويل من طولب في الآخرة بمظالم العباد وليس له رصيد من حسنات .

عن أَبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : «من كانَتْ عنْدَهُ مظلمةٌ لأَخيهِ منْ عِرْضِهِ أَوْ شيءٌ ، فلْيتَحلَّلهُ منهُ اليومَ ، قبلَ أَلاَّ يكُون دينارٌ ولا دِرْهمٌ ، إن كان لهُ عملٌ صالحٌ أُخذَ منهُ بِقدْرِ مظلمتهِ ، وَإنْ لمْ يكُن لهُ حسناتٌ أُخَذ مِنْ سيِّئاتِ صاحِبِه فَحُمِّل علَيْهِ» .

وقد عبرَّ النبي – صلى الله عليه وسلم – عن ذلك بالمفلس الذي أَثقل كاهله بمظالم العباد ، وإن كان له رصيد من العمل الصالح فقد أَربت مظالمه على حسناته حتى أَتت عليها .

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأَصحابه : أَتدرون مِنِ الْمُفْلِسُ ؟ . قالوا : الْمُفْلِسُ فينا من لا درهمَ لهُ ، ولامَتاع . قال : «إِنَّ الْمُفْلِس مِنْ أُمَّتي مَنْ يَأْتي يَوم الْقِيامةِ بِصلاةٍ وصيام وزكاةٍ ، ويَأْتي وقدْ شتمَ هذا ، وقذفَ هٰذَا ، وأَكَلَ مال هٰذا ، وسفَكَ دمَ هٰذَا وضربَ هٰذَا ، فيُعْطى هٰذا مِنْ حَسَناته ، وهٰذَا مِنْ حَسناته ، فَإِنْ فَنيتْ حسَناتُه قَبْل أَنْ يَقْضي ما عَلَيْه ، أُخذَ مِنْ خَطَاياهُمْ ، فَطُرِحَتْ عَليْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ[1]» .

هذا هو عدل الله ، ولا يظلم ربك أَحداً ، ولا يستوي عند الله محسن ومسيء ، أَو ظالم ومظلوم «أَمْ نجْعلُ الَّذينَ آمنُوا وَعملُوا الصَّالحات كالمفْسدين في الأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقين كالْفُجّارِ[2]».«أَفَنجْعَلُ الْمُسْلِمين كالْمُجْرِمين ما لكُمْ كَيْف تَحْكُمُونَ[3]» .

وإِذا كان الظالم يتباهى بقدرته على خلق الله ، ويدل بسطوته على من هم دونه ، فليتذكر قدرة الله

(١) رواه مسلم
(٢) ص : ٢٨
(٣) القلم : ٣٥

عليه ، ولْيَعْلمْ أَن الله ـ عز وجل ـ لا يغفل عنه ، وأَن عين الله ساهرة لا تنام ، وأَن من عدل الله ـ سبحانه ـ أَنه يمهل ولا يهمل ، ، يمهل عبده عسى أَن يثوب إِلى رشده ، وأَن يؤوب إِلى ربه ، وأَن يتوب من ذنبه ، ومع ذلك لا يهمله ولا يتركه سادراً في ظلمه ، ماضياً في غيِّه ، مستمراً في عتوه وجبروته ولكن لابدَّ لكل شيءٍ من نهاية ، وسيأْخذه في اللحظة الحاسمة أَخذ عزيز مقتدر .

ولله در الشاعر الذي يقول :

لا تظلمن إِذا ما كنت مقتدراً
فالظلم يفضي بأَهليه إِلى الندم
تنام عيناك والمظلـــوم منتبه
يدعو عليك وعين الله لم تنم

يقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «إِنَّ الله ليُمْلي للظَّالِم حتى إِذا أَخذهُ لمْ يُفْلِتْهُ ، ثم قرأَ : «وكذلك أَخْذُ ربِّك إِذا أَخذ القُرى ، وهي ظالِمةٌ ، إِنَّ أَخْذهُ أَلِيمٌ شديد» .

(١) هود : ١٠٢

الوفـــاء بـــالعهـــد

يقول الله ـ تعالى : «وبِعهْدِ اللهِ أَوفُوا ، ذٰلِكُمْ وصَّاكُمْ بِهِ لعلَّكُمْ تذكَّرُونْ» .

وعهد الله يشمل أُموراً ثلاثة :

الاول : ما عهده الله إلى الناس على ألسنة رسله .

الثاني : ما يقطعه العبد على نفسه بينه وبين ربه .

الثالث : ما يتعاهد عليه الناس فيما بينهم موافقاً للشرع .

أَما الأَول : فهو عهد الله إلى الناس أَن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً ، وألا يشوبوا عبادتهم بما يكدر صفاءَها ، ويعكر نقاءَها من التوجه لغير الله ، أَو من الخضوع لغير الله ، أَو دعاءِ غير الله ، أَو الاحتكام لغير الله ، أَو غير ذلك مما يبعد بالمؤمن عن عقيدة التوحيد النقية الصافية التي تربطه بالله وحده في كل شؤون حياته .

فولاءُ المؤمن لا يكون إلا لله ، واحتكامه لا يكون إلا لشرعه . «قُلْ : أَغيرَ الله أَتَّخذُ وليًّا فاطِرِ السمٰوات والأَرْض[1] ». «أَفغيرَ الله أَبْتغي حَكَماً ، وهُو الَّذِي أَنْزل إِليْكُمُ الْكتاب مُفَصَّلاً[2] » .

هذا هو عهد الله إلى عباده الذي يجب الوفاءُ به . يقول – سبحانه – : أَلَمْ أَعْهدْ إِليْكُمْ يابني آدم أَلاَّ تعْبُدُوا الشيْطان إِنَّهُ لكُمْ عدُوٌّ مُبِينٌ وأَنِ اعْبُدُوني هٰذا صِرَاطٌ مُسْتقِيمٌ[3] » .

ومن الوفاءِ بعهد الله طاعته فيما أَمرهم به ، ونهاهم عنه ، وأَن يعملوا بكتاب الله وسنة رسوله ، كما قال تعالى : «وما آتاكُمُ الرَّسُولُ فخُذُوهُ وما نَهَاكُمْ عنْهُ فانْتهُوا[4] » .

ومن العهود التي أَخذها الله على العلماءِ الذين يعرفون من أَحكام الدين وقواعده ومبادئه مالا يعرفه عامة الناس ، أَن يبينوا ذلك اليهم ، بكل وسيلة من وسائل البيان بالقلم أَو باللسان أَو غيرهما ، وأَلا يكتموا شيئاً من علمهم ، وإلا كانوا خائنين للعهد

(١) الانعام : ١٤
(٢) الانعام : ١١٤
(٣) يس : ٦٠ – ٦١
(٤) الحشر : ٧

وللميثاق الذي أَخذه الله عليهم في قوله ـ تعالى ـ : «وإِذْ أَخَذَ اللهُ ميثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكتاب لتُبيِّنُنَّه للنَّاسِ ولا تكْتُمُونَهُ ، فنبذُوهُ وراءَ ظُهُورِهِمْ واشْتَرَوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ ما يشْتَرُونَ[1]». وقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يكْتُمُون ما أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدى مِنْ بَعْد ما بَيَّنَّاهُ للنَّاسِ في الْكِتَابِ ، أُولٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ ويلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنا التَّوابُ الرَّحِيمُ[2]» .

وفي الحديث أَن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «مَنْ كتَم عِلْماً يعْلَمُهُ ، أُلْجِم يَوْمَ الْقِيامَة بِلِجام مِنْ نار[3]». وفي رواية : «مَنْ كَتَمَ عِلْماً عَنْ أَهْله[4] ... . الحديث» .

(١) آل عمران ١٨٧ (٢) البقرة : ١٥٩

(٣) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه عن أبي هريرة. وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٤) ومعنى « عن أهله » أى المستحقين له ، فان لم يكن من أهل ذلك العلم ، وترتب عليه مفسده أو مضرة ، فكتمانه أولى ، بل واجب ، حتى يوجد من يفقهه ، فلكل مقام مقال ، وليس كل ما يعلم يقال . وفي الحديث ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : كفى بالمرء اثما أن يحدث بكل ما سمع .
وروى عن الامام على رضى الله عنه أنه قال : حدثوا الناس بما يفهمون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟

الثاني : هو مايلتزم به العبد بينه وبين ربه ، كأعمال البر ، أو النذر في طاعة الله فمن قطع على نفسه عهداً بينه وبين ربه بفعل هذه الطاعات ، فيجب الوفاءُ بها ، كما أمر الله - عز وجل - في قوله : «وَأَوْفُوا بِعهدِ اللهِ إذا عاهَدْتُمْ ، وَلا تنْقُضُوا الأَيْمَان بعْد تَوكِيدِهَا[1]» .

وقال في وصف أُولي الألباب من المؤمنين : «إنَّما يتذكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ الَّذين يُوفُون بِعَهْد الله وَلا ينْقُضُون الميثاقَ[2]» .. وقال : «وأَوْفُوا بِعهْدي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ[3]».

ونعى على بعض المنافقين عدم وفائهم بما عاهدوا الله عليه ، فقال : «ومِنْهُمْ من عاهد الله لئِنْ أَتَانا منْ فضْله لَنصَّدَّقَنَّ ، وَلنكُونَنَّ منَ الصالحين . فَلمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْله بَخِلُوا بِهِ وتولَّوْا وهُمْ مُعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً في قُلُوبِهِمْ إلى يوْمِ يلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا الله ما وعدُوهُ وبِمَا كانُوا يكْذِبُون[4]» .

الثالث : وهو ما يكون بين الناس في معاملاتهم وعلاقاتهم ، فمن أعطى لأحد وعداً ، أو قطع على

(١) النحل : ٩١
(٢) الرعد : ٢٠
(٣) البقرة : ٤٠
(٤) التوبه : ٧٥

نفسه عهداً ؛ يجب عليه الوفاءُ به ما دام موافقاً للشرع .

والوفاءُ بالعهد عنوان الاستقامة ، وآية الصدق ودليل الرجولة ، ومناط الثقة التي تقوم عليها حياة الفرد وبناءُ الجماعة ، وبدون هذا الوفاءِ فلا استقامة ولا ثقة .

ومن عرف بين الناس بنقض العهد وخلف الوعد وعدم الوفاءِ فقد نزع ثقة الناس به من قلوبهم ، وأَصبح مجروحاً في كل معاملاته متهماً بالكذب والخداع والنفاق ، ولن يصدقه الناس يوماً حتى ولو كان صادقاً ؛ لأَنهم اعتادوا منه الكذب وخلف الوعد ونقض العهد .

من أَجل ذلك عظم الله الوفاءَ بالعهد بكل أَنواعه ومدح الأَوفياءَ ، واعتبر ذلك خلقاً أَصيلا من أَخلاق المؤمنين ، فقال ـ سبحانه ـ في صفاتهم «وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذا عاهدُوا [1] ». وقال : «وأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُولاً [2] » . وقال : «بلى مَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ واتَّقى

(١) البقرة : ١٧٧ (٢) الاسراء : ٣٤

فإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ[١]».

ولا يليق بالرجل الكريم النبيل الذي يحترم نفسه ويحترم كلمته أَن يقول قولاً، أَو يعطي وعداً، ثم لا يفي بما يقول، فليس ذلك من أَخلاق المؤمنين. «يَاأَيُّها الَّذِين آمنُوا لم تقُولُون ما لا تَفْعلُون؟ كبُرَ مقْتاً عنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لاَ تَفعلُون[٢]».

من أَجل ذلك عاب الله قوماً عرفوا بنقض العهد، فقال تعالى: «والَّذِين ينْقُضُون عهْدَ اللهِ مِنْ بَعدِ ميثاقه ويَقْطعُون ما أَمرَ اللهُ به أَنْ يُوصل ويُفسدُون في الأَرْضِ أُولٰئِكَ لَهُمُ اللَّعنَةُ ولَهُمْ سُوءُ الدار[٣]». وقال سبحانه: «وما يَضِلُّ بِهِ إِلا الْفَاسقِينَ، الَّذِين ينْقُضُون عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعدِ ميثاقه ويقطَعُون ما أَمرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصلَ ويُفْسِدُون في الأَرْضِ أُولٰئِك هُمُ الخَاسِرُون[٤]». وقال: «إِنَّ شرَّ الدوابِّ عند اللهِ الَّذِين كفَرُوا فهُمْ لا يؤْمِنُون. الَّذِين عاهدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ ينْقُضُون عهْدَهُمْ في كُلِّ مرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُون[٥]».

(١) آل عمران: ٧٦
(٢) الصف: ٢ ـ ٣
(٣) الرعد: ٢٥
(٤) البقرة: ٢٧
(٥) الانفال: ٥٦

وفي الحديث عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم قال : «أَربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كان مُنافقاً خالصاً ، ومن كانتْ فيه خَصْلةٌ منْهُنَّ كانتْ فيهِ خصْلَةٌ من النِّفاقِ حتىَ يدَعَهَا : إذا أُؤْتِمِنَ خَان ، وإذا حدَّث كَذَب ، وإذا عَاهد غَدرَ ، وإذا خَاصَم فجر [1] » .

إن نقض العهد والخيانة والغدر وعدم الوفاءِ بالوعود من خصال المنافقين وصفاتهم الذميمة التي تدل على ضعف النفس وسوءِ الخلق ، وهي تفسد حياة الناس وتجعلها أَشبه بحياة الذئاب في الغابة ، لا يأْمن أَحد فيها على نفسه ، ولا يثق أَحد بغيره ما دام الناس لا يحترمون عهداً ولا ميثاقاً ، ولا يبالون بذمة ولا شرف .

إن الوفاءَ بالعهد خلقٌ أَصيل من أَخلاق الإِسلام ودعامة ثابتة من دعائم المجتمع المسلم لم يتخل الإِسلام عنه لا في سلم ولا حرب ، وكان سمة بارزة للحياة الإِسلامية ، وسلوكاً عملياً للمسلمين مع

(١) متفق عليه .

أنفسهم ومع أعدائهم ، وبلغ الإسلام في ذلك شأواً بعيداً لم تبلغه البشرية إلا في ظل الإسلام ، والتاريخ خير شاهد على ذلك .

قال أبو رافع ، مولى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «بَعَثَتْنِي قُرَيْشٌ إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فلما رأيتُ النبيَّ وَقَعَ في قلبي الإسلامُ . فقلت : يا رسولَ اللهِ ، لا أَرْجعُ إليهم» . ـ وكان ذلك أثناءَ معاهدة الحديبية ـ قال : إنِّي لاَ أَخِيسُ بالْعَهْدِ ، ولا أَحْبِسُ البُرُدَ (أي الرسل الواردين عليه) ، ولكنِ ارْجعْ إِلَيْهِمْ ، فَإِنْ كانَ في قلْبِك الذي فيه الآن فارْجعْ» .

وحينما كان سهيل بن عمرو يفاوض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صلح الحديبية ، جاءَ ابنه أبو جَنْدَلٍ يرسف في القيود والأغلال فارًّا بدينه من المشركين ، فأَخذَ أبوه بتلابيبه ـ ولم يكن العهد قد كُتِب ـ وقال : يا مُحَمَّدُ ، لقدْ لجَّت[1] الْقَضِيَّةُ بيني

(١) وجب التقاضي بيننا ، لانك نقضت الاتفاق بعد ما تم .

وبينك . وهذا أَولُ من قَاضيتكَ عَلَيْه . فقال له : صَدَقْتَ ، فَصَاحَ أَبُو جَنْدَل : ـ وأَبُوهُ يضربُهُ أَمام المسلمين بِعُودٍ من الشَّوكِ في يده ـ يا معشَر الْمُسْلِمين أَأُرَدُّ إِلى المشرِكينَ يَفْتِنُوني في ديني ؟! ورغم أَنَّ المسلمين أَصابهم في ذلك هَمٌّ وكربٌ ، إِلا أَنَّ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رَدَّهُ على المشركين وَفْقاً للشروط التي اتفق عليها وإِن لم يوقعها .

وقال حُذَيفَةُ بن اليمان : ما مَنعَني أَنْ أَشْهَدَ بَدْراً إِلا أَنني خرجتُ أَنا وأَبي «الحُسَيل» فَأَخذَنا كفارُ قريش ، فقالوا : إِنكم تريدون محمداً ؟ . فقلنا : ما نُرِيدُهُ وما نُرِيدُ إِلا المدِينة ، فأَخذُوا مِنَّا عهْدَ اللهِ وميثاقهُ لننطلق إِلى المدينة ، ولا نقاتل معه ، فأَتينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأَخبرناه الخبر ، فقال : «انْصَرِفا . نَفِي بِعَهْدِهم ، ونستعينُ اللهَ عَلَيْهِمْ»

وكتب أَبو عبيدة ـ وهو قائد الجيش ـ إلى عمر ابن الخطاب : «إنَّ عَبْداً أَمَّن أَهْل بَلد بالعراقِ» . وسأَله رأْيه ، فكتب إليه عمر : «إنَّ الله عَظَّمَ الوفاءَ ، ولَنْ تكونُوا أَوْفياءَ حتى تفُوا ، فوفُّوا لهُمْ وَانْصَرِفُوا عنهم [1]» .

---

(١) الاحاديث النبوية حـ ٣ ص ٢١ ، ٢٢

★ ★ ★

الوصيـــة العـــاشرة :

اتبـــاع الصراط المستقيم

وهي خاتمة الوصايا العشر ،وهي تتناول جميع أَحكام الله وشرعه ، وتتضمن جميع الوصايا السابقة . يقول الله – تعالى – في هذه الوصية : «وأَنَّ هٰذا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ ، ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فتفرق بكمْ عَنْ سبيلهِ ، ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لعَلَّكُمْ تَتَّقُون» .

الصراط المستقيم هو أَقصر طريق يوصِّل إلى تحقيق الهدف ، وبلوغ الغاية ، لأَنه لا عوج فيه ولا التواءَ .

وصراط الله هو شرعه ودينه الذي ختم به الشرائع والأَديان ، وأَتم به النعمة على عباده ، وارتضاه لهم ديناً ، وهو الإِسلام . «اليوم أَكملتُ لكُمْ دِينَكُمْ ، وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمتي ، ورَضِيتُ لكُمُ الإِسلام دِيناً[1]» .

(١) المائدة : ٣

وقد فسر الصراط المستقيم بالقرآن الكريم . ولا شك أن القرآن هو روح الإسلام وجوهر الاسلام ، فلو قلت أن الإسلام هو القرآن ، والقرآن هو الإسلام ، لما جاوزت الحقيقة ، فإن القرآن الكريم هو الدستور الذي يتضمن أحكام هذا الدين ومبادئه وقواعده ، وقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – «ألا إنها ستكونُ فتنة . قيل : ما المخْرَجُ منها يا رسُول الله ؟ . قال : كتابُ اللهِ ، فيه نبأُ ما كانَ قبلَكُم ، وخبرُ ما بعدكم ، وحكمُ ما بينكم ، وهو الفصلُ ليس بالهزلِ ، من تركَه من جبَّار قصَمَهُ الله ، ومن ابتغى الهُدَى في غيره أَضَلَّهُ الله ، وهو حبلُ اللهِ المتين وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراطُ المستقيمُ . هو الذي لا تزيغُ به الأَهواءُ ، ولا تلتبِسُ به الأَلسنةُ ، ولا يشْبعُ منه العلماءُ ، ولا يخْلقُ على كثرةِ الرَّدِّ ، ولا تنقضي عجائبُهُ . هو الذي لم تنْتَهِ الجنُّ إذْ سمعته حتى قالوا : إنا سمعنا قرآناً عجباً ، يهدي إلى الرشد . من قال به صَدقَ ، ومن عمِلَ به أُجِر ، ومن حَكَمَ

به عدلَ ، ومَنْ دعا إليه هُدِيَ إلى صراط مستقيم[1]» .

هذا هو صراط الله المستقيم الذي يحقق السعادة للبشر ، ويكفل لهم الأَمن والسلام والطمأْنينة والاستقرار ، ويقودهم إلى النجاة من كل فتنة ظلماءَ لا يضل سالكه ، ولا يهتدي تاركه ؛ لوضوحه واستقامته ، وسهولته وبساطته .

أَما السبل الأُخرى فهي سبل ملتوية منحرفة تقسم الناس شيعاً وأَحزاباً ، وتؤجج نيران العداوة بينهم ، وتمزِّق وحدتهم ، وتضعف قوتهم ، وتفرق كلمتهم ، وقد صور النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا المعنى تصويراً عملياً بوسائل الإِيضاح فيما يروي عبد الله ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : خطَّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطاً بيده ، ثم قال : هذا سبيلُ اللهِ مستقيماً ، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله ، ثم قال : وهذه السبلُ ليس فيها سبيلٌ إلا عليهِ شيطانٌ يدعو إليه ، ثم قرأَ : «وأَنَّ هٰذا

---

(١) رواه الترمذي

صراطي مستقيماً فاتَّبعُوهُ ، ولا تتَّبِعُوا السُّبُل فتفرق بكم عن سبيله [1]» .

وأخرج عبد الرازق وابن جرير وابن مردويه عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أَنَّ رجلا سأَله : ما الصراط المستقيم ؟ . فقال : تركنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أَدناه ، وطرفه في الجنة ، وعن يمينه جوادٌّ ، وعن يساره جوادٌّ ، وثمَّ رجالٌ يَدْعُونَ مَنْ مَرَّ بهم ، فمَنْ أَخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النارِ ، ومن أَخذ على الصراط المستقيم انتهى به إلى الجنة» ثم قرأَ : «وأَنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه.. الآية [2]» .

وروى الإمام أَحمد والترمذي والنسائي عن النواس ابن سمعان مرفوعاً :

«ضرب اللهُ مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعن جنبتي الصراطِ سورانِ فيهما أَبوابٌ مفتحةٌ وعلى الأَبوابِ

---

(١) رواه أحمد والنسائى والبزار والحاكم وصححه .
(٢) تفسير الطبري ١٢/٢٣٠ و « جواد » : جمع جادة ، وهى الطريق .

ستورٌ مرخاةٌ ، وعلى بابِ الصِّراط داع يقولُ : «أَيُّها الناسُ ، هلُمَّ ادْخُلُوا الصِّراطَ الْمُسْتَقيم جميعاً ولا تَفرَّقُوا ، وداع يدْعُو مِنْ فوقِ الصِّراطِ ، فإذا أَراد الإِنسانُ أَنْ يفْتَحَ شيْئاً مِنْ تلْك الأَبوابِ ، قال لهُ : ويْحَكَ ، لا تفْتحْهُ ، فإِنَّك إِنْ تَفْتحْهُ تلجْهُ ، فالصراطُ الإِسلامُ ، والسورانِ حدودُ اللهِ ، والأَبوابُ المفتَّحةُ محارِمُ اللهِ ، وذلك الداعي على رأْس الصراط كتابُ اللهِ ، والداعي من فوقِ الصراطِ واعظُ اللهِ في قلبِ كلِّ مسلم» .

والآية الكريمة تأْمر بالاتحاد ، وتنهى عن التفرق ، كما قال الله ـ تعالى ـ في آية أُخرى : «واعْتَصِمُوا بحبْلِ اللهِ جميعاً ولا تَفَرَّقُوا» ذلك أَن الاعتصام بحبل الله ، واتباع صراطه المستقيم سبب لوحدة القلوب ، وجمع الكلمة ، ووحدة الهدف ، ووحدة الاتجاه ، وسبيل إلى عزة المؤمنين وقوتهم .

ولو اتبع المسلمون هذه الوصية ، فكانوا يداً واحدة ، وصفاً واحداً ، وقلباً واحداً ، يعملون لهدف

واحد ، ويسعون لغاية واحدة ما استطاع أعداءُ الإسلام أن ينفذوا إلى صفوفهم ، فيفرقوا كلمتهم ، ويمزقوا وحدتهم ، ولكانوا قوة يرهب جانبها ، ويخشى بأسها فإن الاتحاد قوة ، والتفرق ضعف ، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، كما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – [1] .

روى ابن جرير الطَّبري عن ابن عباس في قوله – تعالى – : «فاتَّبِعُوهُ ، ولا تَتَّبِعُوا السُّبُل ، فتفرَّق بِكُم عنْ سَبِيله» وقوله : «أَنْ أَقِيمُوا الدِّين ولا تَتَفَرَّقُوا فيه» ونحو هذا في القرآن . قال : أَمرَ اللهُ المؤمنين بالجماعَة ونهاهُمْ عَنْ الاختلاف والفُرقَة ، وأَخْبرَهُمْ أَنَّهُ إِنَّما أَهْلَك مَنْ كانَ قبلَهُمْ بالْمِراء والخصوماتِ [2] .

وقد وصى أَعرابي بنيه قبل موته بالاتحاد في مواجهة الأَعداء ، وفي مواجهة الحياة ؛ ليضمنوا النصر والغلبة ، وألا يتفرقوا ، فيكون ذلك سبيلا إلى الضعف والهزيمة ، فجاءهم بأَعواد من الحطب ضمَّها

---

(١) متفق عليه .
(٢) تفسير الطبري ٢٢٧/١٢ ، ٢٢٨ .

وحاول كسرها جميعاً ، فلم يستطع ، ثم فرَّقَها واحداً واحداً فاستطاع أَن يكسر كل عود على حدة ، وقال لهم :

كونوا جميعاً يابَنيَّ إذا اعترى
خطب ولا تتفرقوا آحـــادا
تأْبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً
وإذا افترقن تكسرت آحـــادا

والآية الكريمة تتناول بمفهومها أَيضاً النهي عن التفرق في الدين الواحد ، وعن التعصب للمذاهب ، والتشيع للآراءِ البشرية ، ورمي المخالفين لها بالجهل والضلال ؛ فإِن الحق واحد لا يتعدد ، ولا ينبغي أَن يكون اختلاف الآراءِ في الأُمور الفرعية مدعاة إِلى التفرق والاختلاف والانحراف عن الصراط المستقيم ، فإِن الاجماع على أَمر فرعي متعذر . وكما قال الإِمام مالك – رضي الله عنه – : « كل أَحدٍ يؤخذُ من كلامه ويُتْرَكُ إِلا المعصومُ – صلى الله عليه وسلم » .

فلو كان مرجع المسلمين في كل أَمورهم هو كتاب

الله وسنة رسوله ما وقع بينهم خلاف ، وما تعصبوا لرأي هذا أو ذاك . وصدق الله العظيم : «فإنْ تنازعتُم في شيءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله والرسول إنْ كُنتُمْ تُؤْمِنُون بالله واليوم الآخِرِ ذٰلِكَ خيْرٌ وأَحْسنُ تَأْوِيلاً» .

يقول الشيخ رشيد رضا ، تعقيباً على ذلك :

«وقد نهى عن التفرق في صراط الحق وسبيله ، فإن التفرق في الدين الواحد هو جعله مذاهب يتشيع لكل منها شيعة وحزب ينصرونه ويتعصبون له ، ويخطِّئون ما خالفه ، ويرمون أتباعه بالجهل والضلال أو الكفر والابتداع ، وذلك سبب لإضاعة الدين بترك طلب الحق المنزل فيه ، لأن كل شيعة تنظر فيما يؤيد مذهبها ، ويظهرها على مخالفيها لا في الحق لذاته ، والاستعانة على استبانته ، وفهم نصوصه ببحث أي عالم من العلماء بغير تعصب ولا تشيع ، والحق لا يمكن أن يكون وقفاً محبوساً من عند الله – تعالى – على عالم معين وعلى أتباعه ، فكل باحث من العلماء يخطئ ويصيب ، وهذا أمر قطعي ثابت

(١) النساء : ٥٩

بالعقل والنقل والإجماع ، ولكن جميع المتعصبين للمذاهب الملتزمين لها مخالفون له ، ومن كان كذلك لم يكن متبعاً لصراط الله الذي هو الحق الواحد ، وهذا ظاهر فيهم ، فإنهم إذا دعوا إلى كتاب الله وإلى ما صح من سنة رسوله أعرضوا عنهما ، وآثروا عليهما قول أي مؤلف لكتاب منتم إلى مذاهبهم [1] » .

وقد أفرد الصراط المستقيم وهو سبيل الله ، وجمع السّبل الأخرى ، لأن الحق واحد لا يتعدد ، ومصدره واحد ، وهو الله ـ عز وجل ـ أما الباطل فكثير ، ومسالكه متشعبة ، وطرقه كثيرة مختلفة ، ومصادره الأهواءُ والشهوات والعصبيات .

وقد كان السلف الصالح من هذه الأُمة ـ رضوان الله عليهم ـ يسلكون صراط الله المستقيم ، فلم تتشعب بهم المسالك ، ولم تتعدد أمامهم السبل ، ولم تتحكم فيهم الأهواءُ والشهوات ، ولم تفرقهم العصبيات ، ذلك لأنهم يستوحون منهج حياتهم من كتاب الله ـ

---

(١) تفسير المنار حـ ٨ ص ١٩٥ ، ١٩٦

عز وجل – ومن هدي رسوله الكريم .

ثم خلف من بعدهم خلْف ، تنكبوا الصراط المستقيم ، وتنكروا للدين القويم ، وغيَّروا وبدَّلوا ، وتنافسوا وتكاثروا ، وساروا وراءَ الغرب يقلدونه ، في كل شي شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، حتى حلَّ بهم الضعف والانحلال ، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً ، كل حزب بما لديهم فرحون .

وقد تنبأَ النبي – صلى الله عليه وسلم – بهذا المصير المفزع الرهيب ، وحذَّر أُمته من الركون إلى الدنيا ، والإخلاد إلى الأَرض ، ونسيان دينهم ، وتقليدهم لأَعدائهم ، فقال : «يوشك أَن تتداعى عليكمُ الأُمم ، كما تداعى الأَكلةُ إلى قصْعتِها . قالوا : أَمِنْ قِلَّة نحنُ يومئذ يارسول الله ؟ . قال : لا . بلْ أَنتمْ كثيرٌ ، ولكنَّكُمْ غثاءٌ كغثاءِ السَّيْلِ ، ولينْزِعنَّ اللهُ مِنْ صُدورِ عدُوِّكُمْ المهابة مِنْكُمْ ، وليقْذِفنَّ في قُلُوبِكُمُ الوهن . قيل : وما الوهنُ يا رسول

الله ؟ . قال : حُبُّ الدُّنيا وكراهيةُ الموت[1] » .

أَين المسلمون اليوم من هذه الوصية حين يقرءون هذه الآية الكريمة التي تأْمرهم باتباع الصراط المستقيم وتحذرهم من الطرق الأُخرى التي تبعدهم عن الحق .

إن الناظر في أَحوال المسلمين اليوم يهوله ما يرى من واقعهم المؤلم الذي يدمي القلوب ، إنهم قوة عددية هائلة في هذا العالم ، يشكلون حوالي أَلف مليون مسلم ، ومع ذلك لا تحس لهم بثقل بين أُمم الأَرض ، بل نراهم مضطهدين يسامون الخسف والهوان في كثير من الأَقطار . فلماذا ؟ .

لاشك أَن السبب واضح ومعروف ، وهو الفجوة الهائلة بين واقع المسلمين وبين دينهم ، المجافاة لكتاب ربهم ، وهدي نبيهم ، الارتماءُ في أَحضان العدو ، والافتتان بكل ما يأْتي عن طريقه ، ولو كان محالفاً لدينهم وعقيدتهم ، وبكلمة واحدة تنكب الصراط المستقيم ، واتباع غير سبيل المؤمنين .

(١) رواه أبو داود والبيهقي في دلائل النبوة .

لقد جربت أُمتنا سبلاً كثيرة ، ومناهج شتّي ، وعادت من كل هذه التجارب بالخيبة والخسران والضياع ، لم تجد ضالتها المنشودة في أي منهج من مناهج الأَرض .

إن التجارب المريرة التي خاضتها أُمتنا عبر هذا التاريخ الطويل يجب أَن تعود منها بالحقيقة الناصعة وهي أَنه لا صلاح لهذه الأُمة ، ولا نجاة لها ، ولا وحدة ولا عزة ولا قوة إلا بالعودة إلى كتاب ربها ، وسلوك صراطه المستقيم ، وأَن يتمثل ذلك إيماناً راسخاً في قلوبها ، وسلوكاً عمليًّا في حياتها ، ومنهجاً ودستوراً لمجتمعاتها ، فلنْ يصْلُح آخِرُ هذهِ الأُمَّة إلا بما صلح به أَوَّلُها .

وبعـــــد ،

فهذه هي الوصايا العشر التي تضمنت أَساس العقيدة في الله ، وتنزيهه عن الأَنداد والشركاءِ والشفعاءِ وتضمنت الأُسس التي تقوم عليها حياة الفرد والأُسرة من التكافل والتراحم ، والتعاطف والتعاون ، وتضمنت

الأُسس التي يقوم عليها المجتمع الصالح من الطهر والعفاف ، ورعاية الحرمات ، وصيانة الدماء والأَموال والأَعراض . المجتمع الذي يستمد منهج حياته من كتاب ربه ، وسنة نبيه ، ويسلك الصراط المستقيم .

اللهم اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أَنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم .

★ ★ ★

الفهرس

	الصفحة
مقـــدمـــة	٣
الوصايا العشر والآيات القرآنية	٥
الوصية الاولى ـ النهى عن الاشراك بالله	١١
الوصية الثانية ـ الاحسان الى الوالدين	١٥
الوصية الثالثة ـ النهى عن قتل الاولاد ذكورا واناثا	٢٤
الوصية الرابعة ـ النهى عن اقتراب الفواحش	٣٠
الوصية الخامسة ـ النهى عن قتل النفس الا بالحق	٣٥
الوصية السادسة ـ المحافظة على مال اليتيم وتنميته	٤١
الوصية السابعة ـ ايفاء الكيل والميزان	٤٦
الوصية الثامنة ـ العدل فى الاقوال والافعال والاحكام	٥٤
الوصية التاسعة ـ الوفاء بالعهد	٧٠
الوصية العاشرة ـ اتباع الصراط المستقيم	٨٠